د. محمد الجوادي

القائد الشهيد

عبدالمنعم رياض

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

عبد المنعم رياض

د. محمد الجوادي

القائد الشهيد
عبد المنعم رياض

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1441 هـ - 2020 م

ISPN - ردمك
978-625-7895-80-4
Abdel Moneim Riad

للطباعة والنشر والتوزيع

إهـــداء

إلى أستاذي..

الأستاذ الدكتور لطفي شهوان

المحتويـات

إهداء ٥
هذا الكتاب ٩
مقدمة الطبعة الأولى ١٣
تقديم الطبعة الأولى بقلم اللواء مهندس جمال محمد علي ١٥

الباب الأول: البناء

الفصل الأول: الإنسان ١٨
الفصل الثاني: الضابط ٣٠
الفصل الثالث: القائد ٤٤

الباب الثاني: الاستواء

الفصل الرابع: الشخصية ٥٨
الفصل الخامس: الاستراتيجي ٧٠
١ – دور العقيدة الدينية في الحرب ٧٢
٢ – التعويل على طبيعة روح العداء والصراع وأثرها الانساني ٧٣
٣ – الوعي باستراتيجية الخصم وهدفه من الحرب والوجود ٧٤
٤ – اقتناع الشعب بقواته المسلحة ٧٦
٥ – حتمية التقدير السليم لكفاءة العدو وطبيعة قواته. ٧٦
٦ – أهمية الاستطلاع المتميز لإمكانات العدو وأوضاعه القتالية ٧٧
٧ – الالتزام بالواقعية في تحديد الهدف القومي من المعركة ٧٧
٨ – الإيمان بضرورة التكامل العربي العميق ٧٩
٩ – أهمية الدفاع الجوي ٨٢
١٠ – أهمية ضربة الطيران السريعة وإيمانه العميق بها ٨٣
١١ – الدور الذي تلعبه الروح المعنوية ٨٣
١٢ – إيمانه بضرورة رفع مستوى القوي البشرية ٨٥
١٣ – القادة يُصنعون ولكنهم لا ينفردون بصنع القرار ٨٦

١٤ – إيمانه بضرورة تجديد دماء القادة في جميع المستويات العليا ٨٧
١٥ – الحرص على تحقيق أعلى درجات التوافق بين المركزية
واللامركزية في القيادة المصرية والعربية..... ٨٨
١٦ – إيمانه بأن القائد بالقدرة لا بالسلطة ٨٩
١٧ – إيمانه بضرورة أن تمتلك قواتنا وقراراتنا مزية الاندفاع الكافي إلى أهدافها ٨٩
١٨ – إيمانه العميق بالبناء على تكامل عناصر القوات المسلحة..... ٩٠

الباب الثالث: على القمة

الفصل السادس: الأردن ٩٢
الفصل السابع: رئاسة الأركان ١٠٦
الفصل الثامن: الاستشهاد..... ١٢١

الباب الرابع: التخليد

الفصل التاسع: مظاهر التخليد ١٤٨
الفصل العاشر: في ديوان الشعر العربي.. قصائد رثاء في عبد المنعم رياض ١٥١
• قصيدة الشاعر نزار قباني ١٥١
• قصيدة الشاعر عبد المنعم الرفاعي ١٥٣
• مصرع الفارس: قصيدة الشاعر سليمان العيسي..... ١٥٤
• الخوذة آنية زهور: قصيدة الشاعر الفلسطيني معين بسيسو ١٥٧
• من قصيدة الشاعر فؤاد حداد ١٥٩
• قصيدة الشاعر أحمد فؤاد نجم ١٦١
• رسالة إلى عبد المنعم رياض: قصيدة الدكتور خالد الناصر..... ١٦٤
• هكذا هتف الشهيد المصري: عبد المنعم رياض
قصيدة الشاعر خالد الصمادي..... ١٦٦
• أخي العزيز الشهيد عبد المنعم رياض شهيد معارك القنال:
من قصيدة الشاعر عبد الرحمن الأبنودي ١٦٨

هذا الكتاب

(١)

ما أسرع ما يمر الزمن، وما أقصر أعمارنا.

كتبت هذا الكتاب للمرة الأولى منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا (١٩٨٠)، ثم اختصرته ليكون مناسبًا لحجم كتاب الجيب، وأتيح لي أن أنشره للمرة الأولى عام أربعة وثمانين (١٩٨٤)، ثم عدت إلى كتابته مرة أخرى في منتصف التسعينيات وأعددته تماما للطباعة والنشر (١٩٩٦)، بل أخذت الصحف في نشر بعض فصوله وفقراته ثم تكرر هذا في عامي ٢٠٠٦ و ٢٠١١ وشاء القدر أن يتأجل نشره أسبوعا بعد أسبوع طيلة خمس سنوات.

وهأنذا أكتب اليوم هذه المقدمة داعيا الله سبحانه وتعالى أن ييسر لهذه الطبعة الصدور عن قريب.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تفي هذه الطبعة ببعض حق عبد المنعم رياض على أمته، وكتابها، ومؤرخيها، فمن الحق أن الأمة قد كرمت عبد المنعم رياض يوم جنازته، وبعدها، ولا تزال تكرمه فيما تخلد به اسمه من منشآت، لكن كتابها يكتفون بالإشارة إلى بطولته وإلى أثره في روح أمته من دون أن يتطرقوا إلى ما ينبغي تأمله من جوانب عظمته وفدائيته.

(٢)

ولست أستطيع أن أتجاهل حقيقة أن هذا الكتاب مختلف تمام الاختلاف عن الطبعة الأولى التي لا يمكن حقيقة أن نعدها بمثابة الطبعة الموجزة منه، لكني مع هذا

لا أستطيع أن أنكر أن الكتاب الأول كان ولا يزال وافيا بالغرض في التعريف بالرجل، والحديث عن إنجازاته، وتكريم بطولته. ومع هذا فإن الكتاب الذي بين أيدينا يحقق كل هذه الغايات على نحو له يفيد من علم بالماضي، ومن دراسة للتاريخ، ومن فهم للسياسة.

ولست أدري هل يكون الأدب قد أدى واجبه تجاه الأمة إذا كان لا يزال يقصر في أداء مثل هذا الدور، أم أن مثل هذا الدور لا يرقي إلى أن يكون أدبا؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومبعث ظني أن الأمر يتجاوز ميدان الأدب إلى ميدان السياسة، فنحن لا نزال في مرحلة من المراحل التي تشعر بالحرج في الحديث عن جزئيات معاصرة على نحو أو آخر، ونظن أن القيود على تفصيلات التاريخ ضرورة يفرضها المستقبل المنظور، بينما أن المستقبل أحوج ما يكون إلى معرفة الماضي حتى لو كانت هذه المعرفة ناقصة، أو مصطبغة بالشخصية أو الشخصنة.

والأمر في بدايته وفي نهايته يتعلق بالنضج الفكري الذي أرجو أن يكون حظنا فيه في قابل الأيام أفضل من حظنا فيه في ماضيها.

(٣)

ولست أستطيع أن أترك هذه المقدمة من دون أن أشير إلى حجم النجاح المذهل الذي نالته الطبعات الثانية وما بعدها من كتابي عن المشير أحمد إسماعيل علي، وهي الطبعات التي صدرت بدءا من ٢٠٠٣.

وقد كان كتابي الأول عن هذا الرجل العظيم توأم كتابي الأول عن عبد المنعم رياض، وأذكر أني أهديتهما إلى علمين عزيزين عليّ كانا يجتمعان في سنة المولد (١٩٣٦)، وقد سألت كليهما على حدة عن أي الكتابين يفضل لو أهدي إليه بحروف المطبعة فاختار كل منهما كتابا غير الآخر.

وهكذا صدر كتابي عن عبد المنعم رياض مهدى إلى أستاذي الدكتور محمد لطفي شهوان، وصدر كتابي عن أحمد إسماعيل مهدى إلى ابن عمتي وشقيقي العزيز الأستاذ عاطف حواس.. عليهم جميعا رحمة الله ورضوانه.

(٤)

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه، وإن كنت أعلم عن نفسي أني لا أخلو من الرياء في كل ما أفعل.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عني ما أشكو من ألم ووصب وقلق،و أن يحسن ختامي، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول.

وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعّمني، وحبب فىّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي بالطبع وبالتأكيد كثيرة ومتواترة ومتنامية. فله سبحانه وتعالى وحده الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادي ـ يناير ٢٠١٦

مقدمة الطبعة الأولى

(٥)

كتبت هذه المقدمة منذ أكثر من ثلث قرن، ونشرت في صدر الكتاب الذي نشر في ١٩٨٤، حافلة ـ كما يرى القارئ ـ بالحماس المتأجج والعطاء المتدفق الذي أذكره في محنتي الحالية فأحمد الله على كل حال..

قد لا يكون لهذا الكتاب خير من هذا العنوان، وقد لا يكون لهذا العنوان خير من هذا الرجل، الذي كانت الطرق تتفرع به طيلة حياته، فيبقي في أكثرها استواء، من حيث لم يكن يعلم ولم يكن من حوله يعلمون أنه سينتهي به قدره إلى هذا القدر الرفيع، الذي لم يكن في الإمكان أرفع منه، لقائد مصري شاءت الدنيا أن يكون لوطنه في حين من الدهر، حين كان السواد يسوده، ولكن النور كان يطل، وعلى يد رياض حينا، وبإنجازه حينا، ثم برياض نفسه، وقد استحال بشهادته إلى نور بقي في فؤاد الجيش الذي أتيح له بعد أربع سنوات أن ينير للأمة كلها عصرا جديدا فيه ضمن ما فيه من العزة والكرامة ورفعة الشأن أقدار مقدورة.

وقد لا يكون لنشر هذا الكتاب على الناس في هذا الوقت من السببية المباشرة معني واضح، أو دافع جدير باعتبارات أهل التوزيع والتسويق، وأهل المال والمناسبات.. ولكن المعنى الذي لا بد أن نتأمله بقلوبنا المفكرة وقبلها بعقولنا الذاكرة، أنه وقد فرغ بنا الزمان من قضية كبرى أخذت من أوقاتنا الأجيال لا السنوات، ومن آلاف أرواحنا المئات، فلا بد لضميرنا الواعي وغير الواعي أن ينظر في أمر الشموع التي احترقت وهي تضيء، وفي أمر المصابيح التي ظل نورها يهدي حتى بعد أن ذهبت مادتها.. وليس أولي باهتمام تلك الضمائر من ذلك الرجل العظيم!!

وقد تتغير معاني البطولة وصورها، في مستقبل الأيام، ولكن البطولة التي

كانت حتى السنوات الماضية لم تكن لتجد تجسيدها بأروع مما كانت تجده في عبد المنعم رياض.

سمع جيلنا وهو في مراحل التعليم المختلفة بأمر رئيس الأركان الذي ذهب إلى لقاء ربه من الصفوف الأمامية، ولكن أغلب هذا الجيل قد لا يعلم الطريق الذي شقه هذا القائد حتى أصبح في هذه الصفوف الأمامية.. وقد لا يعلم لماذا كان هذا القائد يترك التكييف إلى النار، والمكتب إلى الرمال، والتخطيط إلى القتال، والقاهرة إلى القنال، والفراش إلى الخندق، والمناصب إلى المواقع.

وهذا الكتاب على قلة سطوره يروي تفاصيل كل ذلك، أو بعبارة أدق يروي حقائق عن كل ذلك.

فإذا استقام لهذا الكتاب أن يتوافق مع شموع الفكر المستقيم في عقول أهل الإنصاف من الباحثين عن الحقيقة، فسوف ينجح نجاحا كبيرا في أن يرسم للعقول الناضجة سر النعمة التي لقيتها روح هذا الرجل التي تركت الفانية إلى أعلى عليين، جزاء وفاقا من أعدل العادلين لقائد آثر نار عدوه، ورمال وطنه، وخنادق جنوده، ومواقع مدفعيته على طول خط القتال كي يبني جيشا كان قد فقد الخيط الذي ينتظمه.

(٦)

وبعد..

فليست لهذا القلم خبرة بالأمور العسكرية، ولكنه حاول أن يكون من الذين يكتبون ويرجعون إلى أهل الذكر، ولقد لقى صاحب هذا القلم في هذه التجربة من التقدير ما جعله يؤمن بأن التجرد للحقيقة في حد ذاته، قد يكون أنجح السبل إلى الوصول إليها.

وليس لهذا القلم، والله يعلم، مطمع من وراء هذا الكتاب إلا أن يؤدي بعض الدين الذي يطوق أعناق جيل صاحبه كله، نحو رياض، ونحو الشهداء، ونحو كل أبناء وأفراد هذا الجيش، الذي دافع لهم عن وطن، شبوا وخرجوا إلى الحياة، فوجدوه ينعم بالحرية والأمن والسلام، ويجاهد في سبيل تعويض ما فاته!

د. محمد الجوادي ـ القاهرة ١٩٨٣

تقديم الطبعة الأولى

بقلم اللواء مهندس جمال محمد على

(٧)

يتميز كتاب الدكتور الأديب محمد الجوادي عن شهيد الأمة العربية «عبد المنعم رياض» بدقته في البحث والتحليل عن نشأته وتأهيله، مظهرا نبوغه المبكر وهوايته العسكرية، مما خلق منه القائد والمفكر العسكري الاستراتيجي للوطن العربي والشرق الأوسط عامة، وقد جمع رحمه الله الموهبة، والذكاء، والقدرة على الابتكار والتنظيم مع روح فداء وبذل وعطاء بغير حدود، مما أدى إلى استشهاده.

وأقولها وأنا أحد قادة أكتوبر المعاصرين إن استشهاد عبد المنعم رياض تسبب في وجود فراغ كبير في القيادة العامة للقوات المسلحة التي لم تتمكن من سد هذا الفراغ بسهولة، وإني لا أنسي قول اليهود في ذلك الوقت «إنها الطلقة الذهبية هي التي أودت بعبد المنعم رياض»، لأن اليهود كانوا يخشون عقلية عبد المنعم رياض لعلمهم التام بقدراته، وروح قيادته، وتأثيره في المعركة المقبلة.

ولا شك أن نصر عام ١٩٧٣ مدين لعبد المنعم رياض، فهو العقلية التنظيمية التي جادت بها العسكرية المصرية في جيله، والتنظيم هو أسمى مراحل الفكر العسكري، ورياض هو واضع أسس تنظيم قواتنا، وإنشاء قوة رابعة مستقلة للدفاع الجوي، وتنظيم المناطق العسكرية إلى جيوش ميدانية، مما ساعد على وضع خطط العمليات، هذا بالإضافة إلى تخطيطه لتسليح وتدريب القوات المسلحة.. باختصار: وضع الأساس لحرب أكتوبر.

وكواحد من قادة معركة أكتوبر كنت أتمني أن يكون عبد المنعم رياض أحد قادتها ليري ثمرة جهده وعرقه الطويل في بناء القوات المسلحة وتنظيمها، ولنستفيد من خبرته وعبقريته الفذة في المواقف الصعبة. لم يلق عبد المنعم رياض حتى الآن

التكريم اللائق به، وإني أعتبر هذا الكتاب من الأديب الدكتور محمد الجوادي الشاب الوطني الطموح أحد عناصر هذا التكريم.

تحية إلى روح شهداء القوات المسلحة، وشهداء الأمة العربية، وروح شهيدها عبد المنعم رياض.

لواء جمال محمد علي

مدير سلاح المهندسين

(١١/ ٦/ ١٩٦٧ ـ ١/ ٤/ ١٩٧٤)

الباب الأول

البنـاء

الفصل الأول
الإنسان

(٨)

ولد الشهيد عبد المنعم محمد رياض عبد الله في الحادي والعشرين من شهر أكتوبر سنة تسع عشرة (١٩١٩) في بلدة «سبرباي»، وهي بلدة بالقرب من طنطا عاصمة الغربية، ولكنها من حيث التقسيم الإداري تتبع مركز المحمودية (مديرية البحيرة)، وهي موطن أسرة والدته السيدة عائشة محمد الخولي، وكان والده حين ولد يعمل في السودان. وكان المعتاد أن تنتقل الزوجة إلى بيت أهلها عندما يغيب الزوج لفترات طويلة.

(٩)

كان عبد الله طه جد عبد المنعم رياض موظفا في الدائرة السنية بالفيوم، أما الأميرالاي محمد رياض والد الشهيد فقد كان واحدًا من الرعيل الأول للعسكريين المصريين في العصر الحديث، عرف بتفانيه في عمله، وحرصه الشديد على كرامته الشخصية، وقدراته العسكرية الممتازة، وأستاذيته القديرة في المدرسة (الكلية) الحربية، إلى الدرجة التي جعلت تلاميذه فيها يفخرون بأنهم تخرجوا على يديه.

وقد شارك الوالد في الحملة المصرية البريطانية على أعالي النيل، وخدم في «ملكال» عاصمة محافظ أعالي النيل، وكرمه السير ريجنالد وينجت الحاكم المصري العام للسودان في ذلك الوقت (ثم المندوب السامي البريطاني في مصر).

(١٠)

كان لعبد المنعم رياض شقيقان، وثلاث شقيقات، وكان ترتيبه بينهم الثاني، يكبره

شقيقه المغفور له الدكتور محمود رياض الذي تولى وزارة المواصلات مرتين: الأولى في وزارة علي صبري الثانية (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥)، والثانية في وزارة الدكتور عزيز صدقي (١٩٧٢ ـ ١٩٧٣)، وهو أحد علمائنا المبرزين في مجال الإلكترونيات، وقد حصل على درجة الدكتوراه في هذا التخصص من جامعة لندن.

ويصغره شقيقه الدكتور أحمد الذي سبقه إلى رحاب الله سنة ثمان وستين (١٩٦٨)، وكان في ذلك الوقت أستاذا مساعدا لأمراض النساء والولادة بجامعة عين شمس.

وأما شقيقات شهيدنا فهن:

ـ الأستاذة الدكتورة زاكية رياض أستاذة علم الحيوان بكلية البنات جامعة عين شمس، وكانت قد عملت أيضًا أستاذة في كلية طب عين شمس، وهي التي عاشت معه طيلة حياته وكانت بمثابة أمه الثانية.

وقد أتاح الزمن لي أن أتشرف بمعرفة هذه الأستاذة العظيمة، وكانت تلميذة لأستاذنا الدكتور محمود حافظ، وكانت في سنواتها الأخيرة كثيرة التردد عليه، ومشاركة له في الأنشطة العلمية.

ـ والأستاذة الدكتورة وداد رياض أستاذة الباثولوجيا بطب الإسكندرية، وكانت زوجا للدكتور حلمي الخولي أستاذ العمارة الشهير.

ـ والسيدة سميحة حرم الدكتور علي نصحي، الذي كان كبير أطباء الأسنان في وزارة الصحة.

(١١)

وفي بداية سنة ١٩١٩ (التي ولد فيها عبد المنعم) كان الأب محمد رياض برتبة اليوزباشي (النقيب)، يعمل ضمن الحرس السلطاني الخاص للسلطان فؤاد الأول، وكان الرجل قد أمضى في هذه الرتبة ١٣ عامًا، وكان يستحق الترقية إلى رتبة الصاغ، لكن قائد الحرس السلطاني تخطاه، وقام بترقية أحد أقربائه إلى هذه الرتبة، فأبدى محمد رياض سخطه على هذ الظلم الذي حاق به، ولم يكن النظام العسكري يسمح بإبداء مثل هذا السخط، وقد حوكم الوالد بسببه عسكريًا، وعوقب بالنقل

إلى «الفاشر» في غرب السودان حيث قضي ٣ سنوات، ولهذا آثرت زوجته أن تنتقل للمعيشة مع أسرتها في «سيرباي» هي وابنها الأكبر محمود، وهناك وضعت مولودها الثاني «عبد المنعم».

هكذا أتيح لعبد المنعم رياض أن يولد في الريف، وأن ترتبط نشأته بالقرية، وهو ما لم يتح لشقيقه الأكبر، ولا لأشقائه الذين ولدوا في الأوقات التي كانت خدمة والدهم فيها في داخل وطنهم مصر.

(١٢)

وفي سنة ثمان وعشرين (١٩٢٨) انتقلت الأسرة مع عائلها إلى مقر عمله الجديد في العريش، وقُبل عبد المنعم رياض في السنة الثانية الابتدائية في مدرسة العريش الابتدائية، وفيها زامل الدكتور محمد فؤاد حلمي (محافظ الإسكندرية ١٩٧٨ ونائب رئيس جامعتها قبل ذلك)، وكانا يخرجان أصيل كل يوم يستكشفان بروح المعرفة وحب التطلع طبيعة وادي العريش الغامض وأسراره، وكأنما كان رياض وهو يفعل هذا يتهيأ لما أراده له الله بعد ذلك من بطولة ارتبطت بهذا الوادي وأرضه.

وكان والد الدكتور فؤاد حلمي في ذلك الوقت برتبة ملازم أول، على حين كان والد رياض برتبة الصاغ، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور محمد فؤاد حلمي هو شقيق الدكتور مصطفى كمال حلمي رئيس مجلس الشورى السابق، الذي ولد عام ١٩٢٢، ولهما شقيق ثالث سفير أتيح له أن يزامل عبد المنعم رياض أيضًا.

(١٣)

ولم يلبث عبد المنعم رياض أن انتقل مرة أخرى مع والده إلى الإسكندرية (١٩٣٠)، فاستأنف دراسته الابتدائية في مدرسة الرمل الابتدائية (وفي بعض المصادر أنه درس أيضًا في مدرسة رأس التين) حتى حصل على الشهادة الابتدائية (١٩٣١).

وأتيحت لعبد المنعم رياض في الإسكندرية حياة عريضة بين أهل الإسكندرية بكل ما يتمتعون به، وفي رحاب الطبيعة الجميلة، والبحر الثائر الذي لم تكن يد التهذيب قد امتدت بعد إلى شاطئه.

(١٤)

تتابعت الأحداث على حياة الأسرة، وقدر لعبد المنعم رياض أن يعيش في العاصمة بعدما عاش من قبل في القرية، وفي صحراء سيناء، وفي مدينة الإسكندرية، وهكذا اكتملت معرفته بالبيئات المختلفة في وطنه مما كان له أثره بعد ذلك في شخصيته، وثقافته، وأدائه. وكان الوالد قد نقل إلى القاهرة ورقي إلى رتبة القائمقام وأصبح قائدا للأورطة الثانية بيادة، وهو منصب عسكري كبير في ذلك الوقت (يناظر منصب قائد لواء مشاة في عصرنا).

وما لبث الأب أن توفي في ٣٠ نوفمبر ١٩٣١، بينما كان ابنه عبد المنعم في بداية دراسته الثانوية بمدرسة الخديو إسماعيل، وبينما كان إخوة رياض لا يزالون جميعا في مراحل التعليم المختلفة، وهنا يتولى الله أبناء ذلك الرجل برحمته ويخصهم بعنايته، ويرزقهم التوفيق كما رزقهم من قبل حنان الأم التي آثرت أن تتفرغ لهم، وأن تهبهم حياتها، ولم يكن عمرها قد تعدى الثلاثين.

(١٥)

وفي القاهرة شارك عبد المنعم رياض في ثورة الطلبة في (١٩٣٥) وهو طالب في مدرسة الخديو إسماعيل، وكان عبد المنعم رياض موهوبا في الخطابة واستثارة الحماسة، ويروى أنه كان إذا خطب في طابور الصباح خرجت المدرسة عن بكرة أبيها فانضمت إلى مظاهرات الطلبة الهادرة التي كانت تناشد زعماء الأحزاب يومها الاتحاد على كلمة واحدة من أجل مصلحة البلد ومستقبله، وقد تعرضت صدور هؤلاء الطلاب كما نعرف للرصاص، وأيقن الزعماء أنه لا مفر من أن يضحوا بخلافاتهم من أجل الهدف الذي ضحي له الشباب بأرواحهم!

(١٦)

حصل عبد المنعم رياض على البكالوريا من القسم العلمي من مدرسة الخديو إسماعيل (١٩٣٦) بمجموع يؤهله للالتحاق بكلية الطب (يقال إن مجموعه كان ٥٧٪)، وكان ترتيبه الخامس والعشرين بعد المائة بين عشرة آلاف من الناجحين،

وكان قد نال شهادة الكفاءة (١٩٣٤)، لكن عبد المنعم رياض كان قد انتوى الالتحاق بالحربية، ولم تكن والدته تحب له أن يلقى من عناء العسكرية ما لقيه والده.

أما عبد المنعم رياض فقد كان يؤمن بالعُرف الداعي إلى خلافة الأب في مهنته، واستعانت الأم بأخيها في إقناع ولدها فلم يزل به حتى أقنعه بدخول كلية طب قصر العيني ودخل عبد المنعم رياض كلية طب قصر العيني، وسدد القسط الأول من مصروفات الكلية، ولكنه لم يكد ينتظم في دراسته حتى طالع في أول أسبوع للدراسة إعلانا للكلية الحربية عن مواعيد الكشف الطبي لدفعة جديدة.

وذهب فألح على والدته أن تبارك رغبته في الالتحاق بالعسكرية، ولم تكن والدته المستنيرة في حاجة بعد هذا إلى الإلحاح، وسرعان ما شجعت ابنها على أن يسلك طريقه الذي شاءه لنفسه. وقد عوضها الله أن ابنها الثالث التحق بكلية الطب.

(١٧)

لم يكن حب العسكرية نتاج وراثة عن الأب فحسب، لكنه كان نتيجة طبيعة نازعة نزوعا شديدا إلى البطولة، والجرأة، وإثبات الذات، والتفوق.

ويروى على سبيل المثال أن عبد المنعم رياض كان قد بهر بعد حصوله على الابتدائية بصور المظليين الألمان وهم يهبطون بالمظلة، ويروى أنه هبط من أعلى البيت مستخدما شمسية والده متصورا أن هذه الشمسية سوف تؤدي له دور المظلة مع الألمان!!

(١٨)

التحق عبد المنعم رياض بالكلية الحربية في السادس من أكتوبر (١٩٣٦)، وكانت الدراسة في الكلية الحربية في ذلك الوقت على ثلاث مراحل: إعدادية ومتوسطة وثانوية، وقد اجتاز عبد المنعم رياض هذه المراحل الثلاث بتفوق ظاهر، فكان في المرحلتين الأوليين ثاني الدفعة بعد حسين ذو الفقار صبري، فلما انتقل حسين ذو الفقار صبري في السنة الثالثة ليتخصص في كلية الطيران صارت الأولية إلى عبد المنعم رياض الذي تخرج بمرتبة أول الدفعة وباشجاويش الكلية.

ويروى أن عبد المنعم رياض كان في الكلية الحربية شخصية مرموقة منذ يومه وإلى أن كان طالبها الأول، وقد عرف بقوة الشخصية، وطابع الإنسانية معا، فجمع بين حب زملائه واحترامهم.

(١٩)

بدأت مواهب عبد المنعم رياض العسكرية في التفتح والازدهار في الكلية الحربية، وكانت الكلية حتى ذلك الحين تخضع إلى حد كبير لسلطات الإنجليز ونمطهم في النظام العسكري.

وبعد توقيع وإنفاذ معاهدة سنة ست وثلاثين (١٩٣٦) بدأت الكلية تضع أقدامها على طريق التحرر من سلطانهم بنصوص المعاهدة، غير أن تطبيق هذه النصوص كان يحتاج بالطبع إلى فترة من الوقت تستغرقها العقليات القديمة للانتقال إلى الجو الجديد، وهكذا ظلت الروح الإنجليزية في التعليم والإدارة تفرض نفسها على الأساتذة المصريين.

(٢٠)

ويأتي عبد المنعم رياض الطالب الألمعي فيعطي لهذا الافتراق دفعة تتناسب مع قدراته من ناحية، ومع موقعه (المتواضع) من المنظومة التعليمية العسكرية من ناحية أخرى، ذلك أن أحد أساتذته وهو البكباشي حامد نيازي كان يلقي درسا على طلبته.. وكان الطلبة لا يلقون بالا إلى ما يلقيه أستاذهم، وإن بقوا في مقاعد الدرس منصتين، ملتفتين إليه بأبصارهم من دون جوارحهم.

وبينما كان الأمر كذلك رفع عبد المنعم رياض يده لأنه لم يطق أن يضيع وقته من دون أن يكتسب العلم الذي جاء من أجله، وقام إلى أستاذه في احترام وانضباط يسأله عما يقول، ولكن الأستاذ نيازي لم يطق صبرا على هذا التصرف المفاجئ من هذا الطالب الصغير، فأمره بالانصراف إلى مكتبه وانتظاره حتى يعود إليه فيحقق معه.

وفي نهاية التحقيق وجه مساعد كبير المعلمين إلى رياض تهمة ارتكاب جناية السؤال والمناقشة والتمرد، واختتم التحقيق بالتوصية بقرار بفصل عبد المنعم رياض من الكلية الحربية.

(٢١)

ولكن الله سبحانه وتعالى كان لعبد المنعم رياض، أو بالأحري كان لوطنه، فلم يصدق الأميرالاي محمد فتوح بك كبير المعلمين على قرار مساعده البكباشي حامد نيازي، وأعاد فتح التحقيق، واستمع إلى أقوال الأستاذ والتلميذ، ثم أمر بحفظ التحقيق!

وحفظ التحقيق ولكن الخلق الذي بعثه عبد المنعم رياض لم يكن له من مصير إلا التحقق! إذا بدأ الطلاب يتسامعون أن من حقهم أن يسألوا ليفهموا، وأن السؤال لن يكون مدعاة للعقاب، وكان هذا الاتجاه أمرا جديدا على العقلية العسكرية المتأثرة بالمدرسة الإنجليزية الإمبريالية في تعاملها مع الوطنيين وأبناء الشعوب التي غلبوها على أمرها.

(٢٢)

تخرج عبد المنعم رياض في الحادي والعشرين من فبراير (١٩٣٨) على رأس الدفعة التي ضمت الرئيس أنور السادات، ونائبي الرئيس: حسين الشافعي، وزكريا محيي الدين، وأصبح لعبد المنعم رياض ملف في القوات المسلحة العاملين كانت أول ورقة فيه هي تقرير الأميرالاي فتوح بك كبير المعلمين في الكلية الحربية، وفيه وصف الخريج الحديث: «إنه طالب جيد جدًّا من كل الوجوه، يبذل جهده دائما ويمكن الاعتماد عليه!».

(٢٣)

هكذا اكتمل تأهل عبد المنعم رياض بالمهنة، وبدأ تأهيله لنفسه بالثقافة والمعرفة والهوايات، وقد سلك عبد المنعم رياض في ذلك أفضل السبل المتاحة أمام أمثاله في ذلك الوقت.

(٢٤)

كان عبد المنعم رياض من القادة القلائل الذين يتقنون اللغات كأبنائها، ولم يكن ذلك إلا صورة من صور تعطشه إلى المعرفة، وحبه للقدرات العلمية الرفيعة، على

أن الشيء الأروع في هذا الأمر هو أن رياض استطاع أن يتقن بالإضافة إلى الإنجليزية ثلاث لغات أخرى في ثلاث سنوات متتالية، فقد تعلم الفرنسية على يد مدرس خاص (١٩٥٢) والألمانية (١٩٥٣) وكان هذا طبيعيًا ومتاحا، ولكنه تعلم الروسية أيضا (١٩٥٤) على يد روسي أبيض اسمه زانكوفيتش كان يتكسب من هذا العمل في مصر الجديدة. وحين بدأت علاقتنا بالاتحاد السوفيتي تتوثق، كان رياض من الشخصيات النادرة التي لا يتجاوز عددها أصابع اليد التي تتقن الروسية في هذه الفترة المبكرة.

كانت هذه اللغات التي تعلمها رياض أكثر اللغات احتياجا في مجال عمله.

وقد أعانته هذه المعرفة على الاستزادة حتى آخر أيام حياته من أحدث تطورات العلم، وقد كان معروفا عند السوفيت بقدرته في اللغة الروسية، حتى إن وزير الدفاع السوفيتي الماريشال جريتشكو قال للرئيس عبد الناصر ذات لقاء: «إن الجنرال رياض ليس عسكريًا من طراز رفيع فقط، إنني لم أصادف في حياتي جنرالا غير سوفيتي يجيد اللغة الروسية مثلما يجيدها الجنرال رياض، لدرجة أنه يستطيع أن «يقفش» بها في الكلام».

(٢٥)

عاش عبد المنعم رياض لمدة طويلة في المواقع المتقدمة من القوات المسلحة المصرية في عهد الثورة، ولكنه في الستينيات لم يكن يحس براحة النفس، ولا راحة الضمير، لأنه كان، كما كان الناس جميعا في القوات المسلحة وخارجها يعرفون، يعاني بشدة من جهل القيادات التي وصلت إلى المواقع المتقدمة تطبيقا لمبدأ الثقة ليس إلا، وكان يعبر عن معاناته من آثار جهل هذه القيادات، ويعاني قبل ذلك وبعده من الروح التي سادت الجيش فجعلته (برضا وبغير رضا) يسيطر على إدارة وتيسير كل شيء في الوطن سيطرة مسئولين، ويتهيأ لكل شيء إلا معركته.

ولم يكن رياض يكف عن الانتقاد والتنبيه والمراجعة والتبصير، لكن النفوس في ذلك الوقت لم تكن مهيأة لتقبل انتقاده ولا تنبيهه ولا مراجعته ولا تبصيره.

ولم يكن من السهل على رياض أن يخرج من القوات المسلحة، ولم يكن من السهل على أهل الثقة أن يخرجوه وهو المعروف بكفايته وتفوقه، فرأوا أن من

الأنسب لهم وله أن ينقلوه إلى القيادة العربية الموحدة فيما يشبه التجميد أو التجميد المؤقت.

(٢٦)

كان عبد المنعم رياض بهذا التكوين من أبرز أعداء المحسوبية في القوات المسلحة، ومما يذكر له في ذلك أنه حين انتشرت الوساطة في الجيش سنة خمسين في أعقاب حرب فلسطين كان حريصًا في وضوح على تحري الحق في نتائج اختبارات القوات المسلحة، وكان أحد الراسبين في الامتحان النهائي ابنا لأحد كبار الضباط في ذلك الوقت، وبدأت حملة من الضغط على الكلية لإنجاح هذا الطالب، ولكن رياض تصدي لهذه الضغوط، رافضا في إباء، وكانت حجته في ذلك أنه إذا قبلت الوساطة تحت ستار من الإنسانية في أمور النقل والتعيينات، فلا يمكن أن تقبل في العلم وإلا فسنحطم كل شيء!

لكن قوى المحسوبية كانت أقوى من رياض مركزا فقرروا خفض الحد الأدني للنجاح إلى أربعين في المائة بدلا من الخمسين! وهكذا نجح الطالب.

ولكن رياض لم يستسلم وأعلن في صراحة أنه سيستخدم حقه في كتابة تقرير عن الخريج، كما استخدموا حقهم في خفض نسب النجاح، وكتب شهيدنا تقريره مبينا أن هذا الضابط لا يصلح للخدمة في القوات المسلحة!! مرت الأيام وحوكم هذا الضابط بعد تخرجه بسنوات قليلة وأحيل للتقاعد، وصدقت نبوءة رياض.

ولعل في هذا بعض المثل على ما كان من عناد شهيدنا في الحق وللحق ومن أجل مستقبل قواتنا المسلحة والاحتفاظ بها قوية قادرة على تحقيق الهدف الأسمى.

(٢٧)

وقد كان عبد المنعم رياض طيلة حياته متجردًا لحياته المهنية مترهبنًا لها حتى إنه كان من العازفين عن التصوير. ويتصل بعزوفه عن التصوير، عزوفه عن عقد المؤتمرات الصحفية، ويذكر أنه في حياته لم يعقد مؤتمرا صحفيا، ولم يدل بحديث لصحيفة أو راديو أو تليفزيون، على الرغم من هذه المناصب الكثيرة المتصلة بالمتابعة الصحفية والإخبارية.

(٢٨)

كان عبد المنعم رياض بأدائه وسلوكه نموذجًا للجندي المسلم الملتزم، العامل من أجل دينه وأمته، المحارب من أجل إعلاء كلمة الحق ونصرة المظلوم، وقد أدى عبد المنعم رياض العمرة أثناء زيارته للسعودية في مهمة عسكرية سنة ١٩٦٦.

(٢٩)

وفي مجال الرياضة كان عبد المنعم رياض من هواة رياضة كرة القدم مثل معظم المصريين.. في سنوات الطفولة والشباب.

وفي المرحلة الثانوية عرف بحبه للجمباز وألعاب القوى: القرص، والرمح، والجلة، كما مارس الملاكمة والمبارزة خلال فترة دراسته بالكلية الحربية، ونمّى ملكاته الفردية في الدفاع عن النفس، ثم مارس رياضات التنس، والسباحة، والتجديف في سنوات الشباب الأولى، ثم لعب البريدج وهو في سن الرجولة، وأخيرا لعب الجولف.

ودخل رياض العديد من المسابقات في هذه اللعبة حتى حقق ٨٥ ضربة، وهو ما يعتبر بالقياس العالمي للعبة مستوى جيدًا.

ومنذ بداية عام ١٩٦٥ التزاما بتعليمات الطبيب، كان يمشي في أثناء ممارسة تلك اللعبة بشكل مناسب لتنشيط الدورة الدموية، وذلك بعد إصابته بالتخثر الوريدي العميق في ساقه اليمنى.

وربما أشير هنا إلى ما أكرر ذكره في كلية الطب في دروس أمراض القلب والأوعية الدموية من أن سن الخامسة والأربعين يمثل بداية ظهور كثير من أمراض المصريين المؤثرة على لياقتهم. ومن الجدير بالذكر أن نظمنا العسكرية والسياسية لا تسمح بالوصول إلى المناصب الكبرى في القوات المسلحة قبل هذه السن.

(٣٠)

وفي مجال الموسيقى يروي أن عبد المنعم رياض في سنوات شبابه الأولى درس العزف على البيانو لمدة ٣ سنوات دراسة منتظمة جادة، على يد الصول عبد المطلب

محمد معلم الموسيقي بإدارة موسيقات الجيش، وهو واحد من أمهر العازفين على البيانو، وكان عبد المنعم رياض يتطلع إلى أن يصبح مايسترو يقود فرقة موسيقية.

وفي كل الأحوال فقد كان عبد المنعم رياض يتمتع بحس موسيقي يندر بين الهواة مثيله.

وقد كان رياض من عشاق فن السيدة أم كلثوم، خصوصا في أغانيها القديمة، ويروي أنه في شتاء ١٩٦٥ كانت أم كلثوم ضيفة على العشاء في بيت شقيقه الدكتور محمود رياض وزير المواصلات في ذلك الوقت، وكان عبد المنعم رياض ضمن الحضور، وفي هذه السنة بدأت أم كلثوم موسمها بأغنية زجلية، لكن هذه الأغنية لم تبهر رياض بالقدر المعهود، فقال لأم كلثوم بصراحة: «إنت ما لكيش إلا الشعر يا ست!».

وقد ظل رياض حريصًا على مشاهدة الأعمال الفنية والاستمتاع بها، وقد كان معجبا بفن شارلي شابلن في أفلامه الصامتة القديمة! لكنه في السنوات الأخيرة من عمره انقطع عن زيارة دور السينما!

وقد قيل إن حياته العسكرية الجافة حرمته من أن يهوى الإذاعة، وكان يكفيه أن يقرأ الأخبار أولا بأول في نشرات الاستماع، كما أنه لم يكن يتحمل أن يجلس أمام التليفزيون فترة طويلة.

(٣١)

كان عبد المنعم رياض من المؤمنين بالترهب للحياة العسكرية، ولعل تقديرنا لقيمة هذا الخلق تزداد إذا تذكرنا أن صاحبه تمسك به في الزمن الذي سمي بزمن العسكرية والعسكريين، حيث كان الانتماء للمؤسسة العسكرية في حد ذاته بمثابة الطريق لتحقيق كل الامتيازات في الحياة المدنية، وكان عبد المنعم رياض لا يفتأ يعبر عن دهشته للذين يتركون الجيش ليشغلوا مناصب رؤساء مجالس الوزارة أو السفارات، كان ضد شغل مواقع الإدارة بقادة الجيش، وكان ضد منح الامتيازات للضباط، وكان يصرح دوما بأنه لا يوافق على التدخل السياسي في الجيش، ولا على تدخل الجيش في السياسة، وكانت مواقفه في كل هذه الأمور معلنة وواضحة وصريحة.

ومن منطق الترهب كان عبد المنعم رياض يرى أنه يجب على الضابط أن يظل بلا زواج، وكانت نظريته في ذلك أن الضابط مهمته القتال، واستطرادا الموت، وإذا مات فلا يجب أن يترك آثارا عائلية مدمرة، بالإضافة إلى أن الزواج يقلل من روح التضحية!

هكذا كان يعتقد شهيدنا البطل وهكذا فعل، وقد أغناه عن الزواج أنه عاش حياته كلها مع شقيقته الدكتورة زاكية التي عاشت هي الأخرى راهبة في محراب العلم والجامعة، وكان شهيدنا لا يمل الحديث عن أفضالها عليه، والإشادة بروحها معه، ووقوفها من خلفه طيلة حياته.

(٣٢)

ومما يؤسف له أن رياض كان كعادة السواد الأعظم من أبناء طبقته في ذلك الجيل يدخن، وكان يرى أنه معتدل في التدخين لأنه لا يتجاوز في اليوم ٢٠ سيجارة، وكان يتمرد أحيانا على عادة التدخين، فيقرر أن يقلع عنها مدة ١٠ أيام مثلا، وينفذ قراره، لكنه في شهوره العشرين الأخيرة منذ حمل الأعباء الجسام في رئاسة الأركان بعد النكسة، ارتفع معدل تدخينه اليومي إلى ١٢٠ سيجارة.. وهو معدل خطر لا ينجو صاحبه من كثير من المضاعفات، وأرجح أن ما أصيبت به ساقه كان نتيجة التدخين، وقد أصيب رياض بسببه أيضًا بحالة «تسمم نيكوتيني» قبل استشهاده بأربعة أسابيع.

(٣٣)

كان عبد المنعم رياض، شأنه شأن أي إنسان طبيعي، يحب الجمال والرقي والترتيب والتأنق، وكان معروفا بعشقه للخضرة! وكانت أي مساحة خضراء تستهويه، وتأسر مشاعره.

وكان له ذوق في كثير من مناحي الحياة ودروبها، وكان ضعيفا أمام أي مسبحة جميلة! يمد يده بحركة لا شعورية فيأخذ المسبحة ممن يقتنيها.

(٣٤)

لم يتح لعبد المنعم رياض أن يشارك في حرب اليمن فقد كانت أقدميته العسكرية موازية أو سابقة على أقدميات القادة الذين تولوا قيادة القوات العربية في اليمن ، لكنه

كان، فيما يروى عنه، ضائق الصدر بالتورط المصري في هذه الحرب، وبما أسفرت عنه من نتائج على مستوى الجنود واستعدادهم.

وفي ذلك يقول الدكتور زكي سويدان:

«جمعتني الظروف مع الشهيد الفريق أول عبد المنعم رياض، وهو قائم بعمل رئيس أركان حرب القوات المسلحة، وتطرق الحديث إلى كارثة ١٩٦٧، فقال بالحرف الواحد: لو أننا ركزنا جهودنا على التعاون والتكامل مع السودان، لأصبحنا أكبر قوة في الشرق، ولكن للأسف لقد تصفينا في حرب اليمن».

«وقد صدق قول الشهيد الفريق عبد المنعم رياض حين سمعت منه عام ١٩٦٨ أننا فقدنا خيرة رجالنا في حرب اليمن».

الفصل الثاني
الضابط

(٣٥)

عاش عبد المنعم رياض حياة عسكرية صارمة، وتدرج في مواقع القيادة في القوات المسلحة بطريقة سوية، وقد واتاه حظه ليصل إلى مواقع متقدمة ورتب متقدمة، وذلك بحكم قيام ثورة ١٩٥٢ وتخلصها السريع والمتسارع من أبناء الدفعات السابقة عليها، وقد كانت النتيجة أن أبناء دفعة عبد المنعم رياض في فبراير ١٩٣٨ والدفعات الثلاث التاليات لها (دفعة الرئيس جمال عبد الناصر في أغسطس ١٩٣٨، ودفعة عبد اللطيف البغدادي في فبراير ١٩٣٩، ودفعة المشير عبد الحكيم عامر في ١٥ إبريل ١٩٣٩) وصلوا إلى مواقع القيادة في العام التالي لقيام الثورة، وبقوا فيها إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣.

أصبح عبد المنعم رياض بمثابة قائد الدفاع المضاد للطائرات منذ ١٩٥٤، وهكذا أصبح من قادة الدفاع الجوي المبكرين، وإن لم يكن الدفاع الجوي قد عرف بهذا الاسم في ذلك الوقت.

وإذا ما نظرنا إلى الأمور بمقياس العصر الذي نحن فيه، وهيكل القوات المسلحة فيه، فإننا ندرك أن عبد المنعم رياض قد وصل (منذ ١٩٥٣) إلى ما يوازي أن يكون قائدا للقوة الرابعة في القوات المسلحة المصرية، وهي قوة الدفاع الجوي، لكن الأمور لم تكن قد وصلت إلى هذه الدرجة من الاعتراف بالدفاع الجوي قوة رابعة، وإنما كان الدفاع المضاد للطائرات تابعا لقوة أخرى من القوى الرئيسية للقوات المسلحة،وقد بقي كذلك حتى استشهاد عبد المنعم رياض.

ولو أننا كنا طورنا من فكرنا العسكري قبل ١٩٥٦ في اتجاه تأسيس قوة رابعة

تتمثل في الدفاع الجوي، لكان من الممكن لقواتنا المسلحة أن تطور نتيجة حرب ١٩٥٦ من بدايتها إلى نتيجة أخرى مختلفة تمام الاختلاف، تسمح لا بالنصر الحاسم فحسب وإنما بامتلاك مقدرات الأمور في المعارك الجوية والصراع الجوي الذي تفوق العدد فيه، لكن ما عسانا نقول غير القول الذي نركن إليه حتى لا نجلد أنفسنا: قدر الله وما شاء فعل.

(٣٦)

نال عبد المنعم رياض رتبة الفريق (متاخرًا نسبيا) سنة ١٩٦٦. ذلك أنه في سنة ١٩٦٤ كان هناك من الفرقاء في قوات أخرى غير القوات البرية من كانوا تالين له في التخرج.

وقد وصل إلى رتبة الفريق أول في القوات البرية منذ ١٩٦٤، من كان يسبقه بدفعة واحدة هو الفريق أول عبد المحسن كامل مرتجي.

ومع هذا فإنه يمكن القول بأن رياض عاش في المواقع المتقدمة من القيادة بأكثر من معيشته في القيادات الصغرى والوسطى، بل إنه في المواقع الصغرى تولى مسئوليات قيادية منذ كان ملازما، حيث أسندت إليه وهو لا يزال في بداية حياته العسكرية، مهام أركان حرب الكتيبة التي عمل فيها. فتولى مهمة أركان حرب آلاي حين كان برتبة الملازم.

(٣٧)

ونحن نلاحظ أن عبد المنعم رياض سار في تدرجه العسكري سيرًا شبيها إلى حد مطلق بأساتذة الجامعة المتخصصين تخصصا دقيقًا، فقد كانت خدمته العسكرية منذ اليوم الأول في سلاح المدفعية المضادة للطائرات، واستمر في هذا التخصص حتى أصبح من كبار قادة القوات المسلحة بعدما أصبح الرجل الأول في هذا التخصص منذ ١٩٥٤، أي بعد ١٦ عامًا فقط من تخرجه، وهكذا عاش رياض في العسكرية حياة متخصصة تماما كحياة الأكاديميين من أساتذة الجامعات الذين تتمحور حياتهم حول تخصص واحد يرتقون فيه، وفي علمه، وفي درجاته.

ولم يكن عمر هذا السلاح الذي قدر لرياض أن يخدم فيه عند تخرجه يزيد على

أكثر من عام، وهكذا أتيح للضابط الشاب مبكرا أن يكون عمره من عمر السلاح، وأن يكون من الرواد الذين يشقون الطريق، وأن يكون من أوائل المصريين الذين بدءوا يدرسون ويعملون في هذا المجال الذي تنامت أهميته وتزايدت يومًا بعد يوم حتى أصبح يمثل القوة الرابعة في عصرنا الحاضر.

(٣٨)

بدأ عبد المنعم رياض يتلقى المزيد من العلم العسكري والهندسي في التخصص الذي اختاره لنفسه على يدي الكابتن بيكنل رئيس البعثة البريطانية للمدفعية المضادة للطائرات، وكان هذا التدريب يتم في فرقة عمليات المدفعية بالزمالك. وبعد فترة وجيزة أدرك رياض أن علم «حركة المقذوفات»، وهو العلم الأساسي في دراسات المدفعية يتطلب خلفية علمية ورياضية كافية لفهمه، وتتيح له معرفة علمية أكثر من تلك المعرفة التي حصّلها في دراساته السابقة، ولما كان التعليم النظامي العسكري لا يتيح فرصة لمثل هذا التأهيل فقد بحث رياض عن المنهل الذي لا يتعارض مع عمله ووقت عمله حتى اهتدي إليه، في قسم تعليمي حر.

التحق رياض في مايو (١٩٣٨) بالقسم العلمي في المعهد البريطاني بالقاهرة، وأخذ يستزيد من العلوم التي يواكب بها دراساته التخصصية، وظل رياض منتظما في دراساته في هذا المعهد البريطاني إلى أن أغلق ذلك المعهد أبوابه مع بداية الحرب العالمية الثانية في أوائل سنة أربعين (١٩٤٠).

(٣٩)

وكأنما كان عبد المنعم رياض عندما انتهى من دراسته التخصصية في المدفعية المضادة للطائرات، على موعد مع القدر، إذ نشبت الحرب العالمية الثانية بالفعل (١٩٣٩)، وقبيل قيام هذه الحرب كان الآلاي المصري للمدفعية المضادة للطائرات، والذي كان الملازم أول عبد المنعم رياض يخدم في البطارية الأولى منه، قد انتقل إلى الإسكندرية ليدخل دورة تدريبية يشترك فيها معه آلاي بريطاني مشابه.

وكان التدريب يومئذ يتم بالتصويب على هدف مقطور (اسليف)، وفيما كان الآلاي الإنجليزي عاجزا طيلة شهر كامل عن إصابة الهدف، جاء عبد المنعم رياض

وزملاؤه فأصابوا الهدف من ثالث طلقة في اليوم الأول، ثم أصابوا الهدف ثلاث مرات أخرى في الطلقات الثلاث التالية، وعندئذ عبر قائد الآلاي الإنجليزي لأركان حربه عن دهشته من هذه القدرة الخارقة لهؤلاء المصريين.

ولم تلبث سمعة «الطوبجي المصري» أن ذاعت بين فصائل الجيوش البريطانية المحاربة في الصحراء الغربية، فأخذت القيادة البريطانية تتوسع في تشكيل هذه الآلايات المصرية وفي تسليحها وتدريبها حتى إذا ما حان الحين، وأخذت طائرات الألمان تدك الإسكندرية وما حولها استعان البريطانيون بتلك الكفاءات المصرية التي نجحت بالفعل في رد غارات جيوش المحور، ودفع شرها عن ميناء الإسكندرية الذي كان يحفل يومئذ بقطع الأسطول البريطاني، وسفن الإمداد والتموين التي لا تنقطع حركتها عن الميناء.

(٤٠)

استدعي عبد المنعم رياض من موقعه كمدرس للمدفعية المضادة للطائرات في مدرسة المدفعية بالعباسية ليقود إحدى الفصائل الحربية التي تولت الدفاع عن الإسكندرية وميناءها، ثم ليتوجه بأورطته هذه إلى السلوم بناء على أمر شخصي من الماريشال مونتجمري.

وقد تمكنت البطاريات المصرية المضادة للطائرات من أن تسقط في أثناء تمركزها في الإسكندرية ١١ طائرة تابعة لجيوش دول المحور، وبعد انتقالها إلى السلوم أسقطت هذه البطاريات أربع طائرات من طائرات المحور في يومين متتاليين.

وننقل عن عبد التواب عبد الحي هذه القصة التي أوردها بأسلوبه الطلّي متحدثا عن كفاءة الشهيد عبد المنعم رياض في الحرب العالمية الثانية، وهي الكفاءة التي دعت البريطانيين إلى تقديره وشكره:

«... خريف سنة ١٩٤٢.. روميل يتقهقهر، وفي فمه فوهات مدافع مونتجمري! أورطة طوبجية عبد المنعم رياض تنتقل، بأمر من الماريشال مونتجمري شخصيا، إلى السلوم، لتساند في قطع طريق السماء أمام طائرات المحور، التي كانت تهاجم بسعار «المجهود الرئيسي» لقوات الحلفاء المندفعة بالهجوم! وفي ليلتين متتاليتين

أسقط طوبجية رياض ٤ من طائرات المحور، وكعادته عندما يأخذه «جو الحرب» لم ينم عبد المنعم رياض هاتين الليلتين، النهار التالي نوبة راحته، ارتمى على السرير مع أول ضوء، ونام».

«... ساعتان وجاء «الجندي المراسلة» يوقظه باستعجال، «تمام يا فندم.. فيه كولونيل إنجليزي في الموقع بيسأل عن حضرتك»، وبسرعة، وبذقن طويلة، ارتدي رياض أوفرول الميدان، وانطلق من خيمته ليجد أمامه قائد القطاع الإنجليزي، أول ما تبادر إلى ذهنه أنه جاء يمر للتفتيش، فبادره رياض بثبات: «إني آسف يا سيدي الكولونيل لمظهري وذقني غير الحليقة.. فأنا في نوبة راحتي.. ولو كنت علمت مقدما بزيارتك لكنت الآن في استقبالك على نحو أكثر انضباطا».

ورد الكولونيل مندهشا ومعتذرا معا: «أنا لست هنا لأفتش عليك.. جئت أحمل إليك شكر الجنرال قائد المنطقة على مجهودكم الموفق في الليلتين الماضيتين، والخطأ خطأ الجندي المراسلة الذي أيقظك، فلو أنه أفهمني أنك نائم، لانتظرتك، في الموقع حتى تستيقظ، أو مررت عليك في وقت آخر، ومع ذلك أعتذر لك عن خطأ الجندي!».

(٤١)

ربما نذكر هنا أن عدم إعلان مصر مشاركتها الفعلية في الحرب العالمية الثانية حتى ذلك الوقت لم يمكننا من أن تسجل العسكرية المصرية الفخر بهذه الإنجازات أو النجاحات على أنها نجاحات وطنية، وظلت مثل هذه النجاحات منسوبة إلى القوات البريطانية، أو قوات الحلفاء على وجه العموم.

وحين إذا انزاح عن الحلفاء كابوس الحرب عاد عبد المنعم رياض إلى موقع الأستاذية في القاهرة (١٩٤٤).

(٤٢)

ها هو عبد المنعم رياض يفرغ إلى نفسه من الحرب العالمية بعدما أوشكت أن تضع أوزارها، فيتقدم بأوراقه للالتحاق بكلية أركان الحرب، وهو الذي لم يمض على تخرجه أكثر من ست سنوات، ويتخرج رياض الضابط الصغير الحديث على

رأس سابع دفعة تخرجت في كلية أركان الحرب المصرية التي هي كلية الدراسات العليا للعسكريين الوطنيين في ديسمبر (١٩٤٤).

ومن الطريف أن اعتماد الشهادة الرسمية لتخرج عبد المنعم رياض لم يحدث إلا في ١٩٥٣ أي بعد قيام الثورة، وكان بعض الذين وقعوا باعتمادها من الذين لم يلتحقوا بكلية أركان الحرب إلا بعد تخرج عبد المنعم رياض فيها، ومن هؤلاء عبد الناصر وعبد الحكيم عامر.

(٤٣)

وفي سنة ١٩٤٥ سافر عبد المنعم رياض في بعثة للدراسة في مدرسة فن المدفعية في «لاركيل تاون»، وهي مدينة بريطانية على شاطئ الأطلنطي، وهناك أظهر الضابط الشاب من المهارة ما جعل قائد المدرسة يحدثه عن ارتفاع مستواه العلمي والفني، وانتهزها عبد المنعم رياض فطلب إلى قائد المدرسة أن يصرح له باختصار الدورة إلى خمسة شهور بدلا من عشرة، فأجابه القائد إلى طلبه، وانتهى رياض من دراسته في الفترة التي حددها لنفسه وتخرج في اليوم العشرين من فبراير (١٩٤٦) (أي بعد ثماني سنوات بالضبط من تخرجه في المدرسة الحربية المصرية)، متخصصا في تعليم المدفعية بنوعيها: مدفعية الميدان، والمدفعية المضادة للطائرات، وذلك بعد أن حصل على لقب معلم مدفعية من مدرسة المدفعية المضادة للطائرات في جنوب ويلز.

واستكمل شهيدنا دراسته بعد ذلك في كلية «دولتس» الأكاديمية بإنجلترا.

وقد أحس عبد المنعم رياض بعدما أحاط علما بهذه العلوم العسكرية المتقدمة، أن عليه واجب نقلها والتعريف بها على مستويات عسكرية متعددة، وقد أتيح له أن يلقي محاضرة مسائية في ميس الآلاي الثاني المضاد للطائرات بالعباسية، وحضرها حوالي ٢٠٠ ضابط من الرتب الصغيرة والمتوسطة، وقد اختار أن تكون المحاضرة عن الرادار!

ولم يكن في الجيش المصري حتى ذلك الحين جهاز رادار واحد! لكن رياض مهد الأذهان للتطور القادم.

(٤٤)

أعلنت مصر عن دخول جيشها حرب فلسطين (مايو ١٩٤٨) وكان عبد المنعم رياض يعمل في إدارة العمليات المخططة، وظل يؤدي وظيفته في هذه الإدارة على نحو متميز طيلة الحرب، وكان، بحق، همزة وصل بين القادة في القاهرة وقيادة الميدان على أرض فلسطين.

وقد شهد له اللواء عمر طنطاوي قائد المدفعية في حرب فلسطين، شهادة تستحق التسجيل، حيث قال:

> «رغم ظروف المعركة السيئة في فلسطين، سواء الأسلحة الفاسدة، أو بسبب سوء الإمدادات والتمويل، أو المعلومات القليلة المتوافرة لدينا عن قوات العدو، فقد كنت أشعر بأن البكباشي عبد المنعم رياض هو العقل المفكر الوحيد في إدارة العمليات والخطط وراءنا في القاهرة، كان ينجدني دائما، ولم يخب ظني فيه طوال العمليات مرة واحدة».

ولعل هذا يفسر لنا تقدير الدولة لرياض في أعقاب حرب ١٩٤٨، حيث كان من الضباط الذين كرمتهم الدولة عقب تلك الحرب، وقد نال نوط الجدارة الذهبي في ٢٠ فبراير (١٩٤٩)، ومن الطريف أنه يوافق يوم تخرجه في المدرسة البريطانية (١٩٤٦) وفي المدرسة الحربية (١٩٣٨).

(٤٥)

وفيما بين حربي ثمان وأربعين (١٩٤٨) وست وخمسين (١٩٥٦) لمع اسم عبد المنعم رياض من خلال نجاحه البارز في ثلاثة مواقع متتالية كانت هي أهم المواقع في سلاح المدفعية المضادة للطائرات، حيث عمل أولا قائدا لمدرسة المدفعية المضادة للطائرات فيما بين سنة اثنتين وخمسين (١٩٥٢) ومايو سنة ثلاث وخمسين (١٩٥٣)، ثم أصبح قائدا للواء الأول المضاد للطائرات بالإسكندرية، فقائدا للدفاع المضاد للطائرات.

هكذا كان عبد المنعم رياض قد وصل إلى الصف الأول من القيادة العسكرية في ١٩٥٣، أي بعد ١٥ عامًا فقط من تخرجه.

(٤٦)

وربما يحتاج أداء عبد المنعم رياض في هذه المواقع إلى قدر من الضوء الكاشف عن عبقريته.

أما في مدرسة المدفعية المضادة للطائرات فقد بذل شهيدنا البطل جهدا كبيرا في تطوير الدراسة بالمدرسة، ورفع مستوى دوراتها التدريبية، وسنّ كثيرًا من التقاليد التي لا تزال المدرسة تأخذ بها.

وخرّج رياض في المدرسة كثيرًا من الضباط الذين عملوا تحت قيادته بعد ذلك، بعدما أتيحت لهم الفرصة أن يعرفوا عظمة عبد المنعم رياض كقائد ومعلم، وبعدما أتيح له أن يتخير أفضل العناصر وأكفأها في سبيل خدمة الوطن.

(٤٧)

وفي أول مايو (١٩٥٣) ترك عبد المنعم رياض قيادة مدرسة المدفعية المضادة للطائرات بعدما بقي في هذا المنصب لمدة سنة كاملة (قامت خلالها ثورة ١٩٥٢) ليتولى قيادة اللواء الأول المضاد للطائرات بالإسكندرية.

وفي الاسكندرية عاش الشهيد قريبا من أخيه الدكتور محمود رياض الذي كان يعمل في ذلك الوقت أستاذا للإلكترونيات في هندسة الإسكندرية، وقد عاد التقاء الأخوين بالخير على الوطن، ذلك أن قواتنا المسلحة كانت إلى ذلك الحين تنفق على تدريب المدفعية المضادة للطائرات كثيرًا من الأموال، تشتري بها الطائرات (الهدف) وهي طائرات بلا طيار توجه باللاسلكي من الأرض، وتناور، بينما تلاحقها المدافع بالنيران، لتصيبها، وتسقطها إثباتا للمقدرة، وكان ثمن الطائرة الواحدة من طائرات الهدف هذه في أوائل الخمسينيات يبلغ خمسين ألفا من الجنيهات، فلما اجتمع الشقيقان الدكتور محمود والشهيد عبد المنعم رياض أو قل اجتمعت أستاذية الأول في الهندسة والإلكترونيات بخبرة الثاني في مجال تخصصه، تمكنا من وضع تصميم للطائرة يمكن معه تصنيعها محليا بربع تكاليف استيرادها من بريطانيا، وصارت قواتنا المسلحة تصنع هذه الطائرات محليا بعد ذلك!

(٤٨)

ومن خلال موقع عبد المنعم رياض في قيادة الدفاع الجوي المضاد للطائرات، نجح شهيدنا في إدخال كثير من التطويرات والتحديثات على هذا السلاح، كما نجح في إدخال المعدات اللاسلكية الألكترونية.

كما واصل الدراسات الملاحقة للتطورات الجديدة في صناعة وسائل الدفاع الجوي التي كان قد بدأها في مدرسة المدفعية، حين كان الحصول على أجهزة الرادارات يعتبر فتحا، وكانت وحدات الرادار في ذلك الوقت من أخطر الأسرار في الجيوش المحاربة.

(٤٩)

وفي حرب عام ستة وخمسين (١٩٥٦) كان القائمقام عبد المنعم رياض لا يزال يشغل منصب قائد الدفاع المضاد للطائرات، فلما كانت ضربة الطيران التي بدأت بها إسرائيل أدرك الرجل العسكري بثاقب نظره أن مكانه لم يعد بين جدران مكتبه، فخرج إلى المطارات الواقعة يتنقل بينها في سرعة خاطفة، وكان يندفع بضباطه إلى المطارات القريبة من القاهرة والمطارات الواقعة في منطقة القتال لإنقاذ الطائرات الرابضة على أرض هذه المطارات.

وبلغ الأمر برياض وبضباطه في الحرص على ثروتنا الجوية أنهم كانوا لا ينتظرون حتى يقودوا الطائرة، وإنما كانوا يدفعونها بأيديهم، وفيما كانوا يقومون بهذا كانت صواريخ العدو تصيبهم هم أنفسهم.

وتأتي في هذه السياق قصة إصابة يده بحروق نتيجة ما تعرضت له من انفجارات وشظايا بينما هو يدفع بيديه الطائرات الرابضة في المطار بعيدا عن نيران العدو.

(٥٠)

وحين بدأت مصر تتجه إلى تنويع مصادر الأسلحة، وتستعين بالسلاح الشرقي، كان عبد المنعم رياض من أوائل الضباط الذين ابتعثوا للدراسة في أكاديمية «فرونز» بالاتحاد السوفيتي.

ففيما بين إبريل سنة ثمان وخمسين (١٩٥٨) وفبراير سنة تسع وخمسين (١٩٥٩)، أتيح للشهيد عبد المنعم رياض أن يقضي دورة تكتيكية متقدمة في الأكاديمية العسكرية العليا بـ«فرونز» بالاتحاد السوفيتي فأتمها بامتياز.

وكانت هذه ثاني دورة يحضرها الضباط العرب، وفيها أبرز رياض تفوقا ونبوغا ملحوظين، حتى إن أحد أساتذة العسكرية السوفيت الكبار والقادة الروس في الحرب العالمية الثانية ظل يذكره بالحيز عليهما، ويذكر للحضور من كبار الضباط في الدورات التالية بأنه على هذا المقعد جلس «الجنرال الذهبي»، وكانت هذه هي التسمية التي أطلقها هو وزملاؤه من الأساتذة السوفيت على عبد المنعم رياض!

(٥١)

ومنذ بداية الستينيات تدرج رياض في مجموعة من المواقع القيادية التي تبدو ذات أهمية خاصة، لكنها في إطار ظاهرة تعدد الحلقات القيادية في القوات المسلحة المصرية في ذلك الوقت، لم تكن إلا من قبيل مواقع تسكين لكبار القادة الذين وصلوا إلى الرتب العالية ولم يصلوا بعد إلى السن التي تمكن من إحالتهم للتقاعد.

وقد كان في وسع رياض أن يترك القوات المسلحة إلى مواقع متقدمة في الجهاز المدني للدولة، على نحو ما فعل معظم زملائه، لكن تكوين رياض العسكري لم يكن ليسمح له بذلك، بل إن رياض نفسه سخر من فكرة ترشيحه للعمل سفيرا، وقال في ذلك الوقت: «كيف يمكن له أن يعمل سفيرا وهو لن يطيق أن يوجه له أي رئيس أجنبي تحفظا مغلفا على سياسات بلاده».

(٥٢)

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن الأدبيات التاريخية المتاحة لا تلقي ضوءا كافيا على أداء عبد المنعم رياض في المواقع التي شغلها في قيادة سلاح المدفعية أو العمليات أو القيادة العامة في هذه الفترة، لكننا نستطيع إدراك الحقيقة والجوانب المختلفة للصورة من خلال إلمامنا بشخصية الرجل وطبيعة أدائه المهني والوظيفي.

ومع هذا فقد أفاد هذا التنقل في تكوين ملامح موسوعية لشخصية عبد المنعم

رياض مكنته من الإلمام بسير الأمور، وطبيعة المشكلات التي تواجه هيئات مختلفة في القوات المسلحة، كما مكنه من عناصر مهمة لتكوينه السياسي والاستراتيجي.

وفي هذا الصدد يروى أن محمد حافظ إسماعيل (وقد كان هو الآخر شبيها في تكوينه العسكري المتميز برياض وسابقا عليه في الدفعة والأقدمية) نصح لرياض ذات مرة فقال له ما معناه: حتى لو نقلوك إلى البحرية فلتنفذ النقل، لأن مثل هذا النقل سيفيدك في تكوينك المعرفي، وسيؤهلك لأعظم الخبرات التي يتطلبها تكوين القائد العام. ومن المفارقات أن رياض بعد هذا كله استشهد قبل أن تفيد مصر منه في موقع القائد العام.

وقد رقي عبد المنعم رياض رئيسًا لأركان سلاح المدفعية سنة ١٩٦٠، وهو منصب متقدم كما نُقل لمنصب نائب رئيس شعبة العمليات برئاسة أركان حرب القوات المسلحة سنة ١٩٦١، وهو المنصب الذي اكتسب أهمية خاصة مع الزمن، وكان بمثابة مستشار الدفاع الجوي في غرفة العمليات.

(٥٣)

حصل رياض على رتبة اللواء، ولكنه لم يترك الاستزادة من العلم، فالتحق وهو برتبة اللواء بدورة للصواريخ عقدتها مدرسة المدفعية المضادة للطائرات فيما بين أغسطس سنة اثنتين وستين (١٩٦٢) ويناير سنة ثلاث وستين (١٩٦٣)، واجتاز هذه الدورة كما اجتاز غيرها بتفوق ملحوظ.

(٥٤)

ثم انتقل للعمل في القيادة العربية الموحدة كما نعرف، وفي أثناء عمله في هذه القيادة تقدم للدراسة في كلية الحرب العليا، وكان من الممكن له بحكم مكانته أن يتولى الأستاذية في هذه الكلية بحكم وضعه أو رتبته أو خبرته أو عمله، ولكن روح رياض المتعطشة للعلم تغلبت على كل هذا، وبدأ رياض دراسته منتسبا بحكم عمله الذي كان يستغرق أكثر الوقت، ولكن رياض كان حريصًا على دروسه حتى فاقت نسبة حضوره نسب المنتظمين. وإذ ذاك اجتمع مجلس التعليم في جلسة خاصة وقرر استنادا إلى ما عهد فيه من انتظام وجدية تغيير صفته إلى (منتظم).

وظل رياض يدرس في هذه الأكاديمية فيما بين مارس سنة خمس وستين (١٩٦٥) ويوليو سنة ست وستين (١٩٦٦) حتى تخرج بأعلى الدرجات وكانت ترتيبه أول دفعته!

وفي ٢١ أبريل سنة ١٩٦٦ أقامت كلية الحرب العليا حفل تخرج للدفعة الأولى من خريجيها، ورياض بين الخريجين بالاسم، لكنه لم يتح له حضور ذلك اليوم، فقد كان في غرفة عمليات الجراحة بمستشفى المعادي يجري عملية «فتق».

ومع نهاية دراسة عبد المنعم رياض في كلية الحرب العليا حصل على رتبة الفريق في ٢١ إبريل (١٩٦٦).

(٥٥)

إذا أحصينا الفترات الزمنية التي قضاها رياض في الدراسة والتأهيل وجدناها تفوق المعدل المعهود في التاريخ العسكري لضابط قائد مثل رياض، بل إنه قلما يتاح لأعضاء هيئات التدريس في الجامعات أن يمضوا مثل هذا الزمن في تنمية المعرفة.

وقد تصادف أن أدى اختلاط الميل المعرفي لعبد المنعم رياض بالميل السياسي إلى إبعاده عن المواقع المؤثرة في القوات المسلحة، فأتيح له في هذا الوقت الطويل تنمية المعرفة.

ولا مراء في أن هذه الفترات التي قضاها في تلقي العلم قد أفادته بالقدر الذي أفادته فيه الخبرة التي هيأها له الله، في تسلسل بديع لم يبعد به عن نطاق تخصصه الدقيق في المدفعية المضادة للطائرات.

(٥٦)

وربما كان من المفيد في نهاية هذا الفصل أن ننقل هنا بعض الآراء أو التقارير الرسمية في تقييم شخصية عبد المنعم رياض.

فهذا أولًا هو تقرير كفايته بعد نجاحه في دورة أركان الحرب:

«... يُوصي به كضابط أركان حرب.. مجد جدًّا.. ذو غيرة.. وشخصية قوية..

يعمل باقتدار.. ويتمتع بروح الابتكار.. نشط.. يدرس كثيرًا، ويبحث بطريقة منهجية عن الحقائق العلمية المجردة، له أفكاره الخاصة، وعنده الشجاعة الكافية لإبداء رأيه دائمًا».

(٥٧)

وهذه فقرة من تقرير أساتذته عنه في أثناء دراسته في أكاديمية الحرب السوفيتية:

«... كفاءته العسكرية والفنية تجعله في مقدمة ضباط المدفعية، لأنه ناجح ويتمتع بشخصية قوية.. حاد الذكاء.. اجتماعي.. ورياضي.. عميق في تفكيره وبحثه لأي موضوع.. دقيق ومنظم في عمله ويعتمد عليه».

(٥٨)

وكما أشرنا من قبل فقد كان الجنرال يانبشنكو، وهو من كبار المعلمين السوفييت، وصاحب تاريخ مجيد في الحرب العالمية الثانية، لا يمل دائما من أن يكرر للدارسين العرب:

«على المقعد الرابع في الدورة الأولى التي اشترك فيها دارسون عرب في هذه الأكاديمية، كان يجلس الجنرال رياض: الجنرال الذهبي».

(٥٩)

وهذه فقرة من تقرير خدمته قائدا للدفاع المضاد للطائرات:

«... ضابط أركان حرب ممتاز من جميع الوجوه، معلم قدير متمكن جدًّا من فن المدفعية المضادة للطائرات، وقد تجلى ذلك بوضوح في تدريب وحدات الآلاي، محب جدًّا للضبط والربط، يؤدي عمله بإخلاص وأمانة على الوجه الأكمل الصحيح، مهما كلفه ذلك من مشاق ووقت ومجهود، ضابط يعتمد عليه كثيرًا في النواحي الفنية، ورجل له كافة صفات الرجولة».

(٦٠)

وهذه فقرة من تقرير خدمته وهو نائب لرئيس شعبة العمليات:

«... إن كل ما يكتب عن اللواء عبد المنعم رياض لا يفيه حقه، فهو مثل يحتذى، وقدوة في جميع النواحي.. ثقافة وذكاء وقوة شخصية وضبط وربط ودماثة خلق وصراحة في الحق، وسعة في الأفق، وإنكار للذات، وبمناسبة نقله من شعبة العمليات نؤكد عن إيمان أن شعبة العمليات قد خسرته نائبا لرئيسها، وهو خير مَنْ ترشحه رئيسًا لها».

(٦١)

وهذه فقرة من تقرير تقييمه دارسا في أكاديمية الحرب المصرية العليا:

«... بالنسبة للفن التعبوي أظهر الفريق عبد المنعم رياض ابتكارا ومبادأة ونشاطا كبيرا، ومقدرة على تطبيق الناحية النظرية تطبيقا علميا واقعيا، وخلاقا في حل المشاكل العملية.. قادرًا على التعبير عن آرائه في إيضاح وتوسع وكفاية، كما ظهرت وبرزت قدرته على أعمال الأركان.. أظهر معرفة عميقة لأسس الفن التعبوي». أما بالنسبة للفن الاستراتيجي فقد أظهر مقدرته على التحليل الشامل والصحيح للمبادئ النظرية للاستراتيجي العسكرية وتطبيقها على مسرح العمليات تبعا للقدرات الاقتصادية والعسكرية للجمهورية، ويحاول دائما الربط بين المبادئ الأساسية والبناء العملي للقوات المسلحة».

الفصل الثالث

القائــد

(٦٢)

كان عبد المنعم رياض من الضباط المعروفين بالانضباط المطلق، ولهذا السبب فإن أحدا من قادة الضباط الأحرار (على حد علمنا وعلى حد ما هو متاح في الأدبيات السياسة والتاريخية) لم يفكر في مفاتحة رياض في الانضمام إليهم، على الرغم من أن دفعته كانت من أكثر الدفعات التي تضم الضباط الأحرار بين أفرادها، بل كان منهم أنور السادات، وحسين الشافعي، وزكريا محيي الدين الذين وصلوا إلى أعلى المراكز في ظل حكم الثورة.

كان عبد المنعم رياض عندما قامت الثورة في ١٩٥٢ يتدرج بخطوات واثقة في الكادر العسكري، مؤهلا نفسه ليكون عن قرب أحد قادة القوات المسلحة البارزين، فقد كان بأسبقيته ودراساته وتفوقه قد أصبح على الطريق العريض إلى هذه المكانة، ويمكن القول بدون تزيد إن قيام الثورة قد عطل مسيرة رياض العسكرية التي كانت كفيلة له بأفضل بكثير مما وصل إليه في عهد الثورة.

مع هذا فإن ولاء عبد المنعم رياض لوطنه وجيشه كان فوق كل اعتبار، وقد روّض نفسه على أن يخدم وطنه في كل الظروف، ومع كل المصاعب، وبخاصة المصاعب النفسية التي تؤذي أمثاله من المتميزين في ظل حكم ثورة أو انقلاب عسكري يتيح لطائفة معينة مزايا على حساب أصحاب الحق الأصلى.

(٦٣)

كان نموذج عبد المنعم رياض يكفل له أن يمضي في تكوينه العسكري حتى

نهاية عمره بعيدا عن السياسة، ومع هذا فإن ظروف الترقي السريع لدفعته مع بقائهم يخدمون بحكم عدم تجاوزهم السن، جعلت كثيرا من زملائه يمارسون السياسة بالاضطرار أو الإجبار، حتى مع عدم ابتعادهم عن القوات المسلحة المصرية وتشكيلاتها، وكانت تجربة الوحدة مع سوريا قد فتحت أعينهم على إمكانية الجمع بين المسارين في بعض المراحل.

كان عبد المنعم رياض كان قد وصل إلى أعلى منصب في مجال تخصصه العسكري الدقيق (الذي اختاره لنفسه) وهو منصب قائد قوات الدفاع المضاد للطائرات منذ ١٩٥٤.

وهكذا أصبحت هناك سنوات أكثر من العشر كان عليها أن يقضيها في مواقع متقدمة بروتوكوليا، وإن لم تكن بذات الأهمية عسكريًا وفنيا وقتاليا حتى يصل إلى رياسة الأركان، أو إلى منصب القائد العام للقوات المسلحة (وقد وصل بالفعل إلى رياسة الأركان في يونيو ١٩٦٧ بعد وقوع الهزيمة).

(٦٤)

في هذه الفترة الطويلة الممتدة ما بين ١٩٥٦ (بل ١٩٥٤ إذا أردنا الدقة) وبين ١٩٦٧ قضي رياض خدمته في مواقع متقدمة:

- رئيس أركان سلاح المدفعية ١٩٦٠.

من الطريف أن الهيكل التنظيمي للقوات المسلحة في ذلك الوقت كان يجعل هذا المنصب أعلى مما يوازي منصب قائد قوات الدفاع الجوي، وهكذا ترقي رياض من قائد الدفاع المضاد للطائرات إلى رئيس أركان حرب سلاح المدفعية، وهو عكس الوضع الحالي حيث أصبح قائد الدفاع الجوي واحدًا من قادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة سابقا في البروتوكول حتى على مدير المدفعية نفسه.

- نائب رئيس شعبة العمليات برئاسة أركان حرب القوات المسلحة.

(ونحن نعرف الآن أن مركز القائد المسئول عن العمليات أصبح تاليا في الأهمية مباشرة لرئيس أركان حرب القوات مباشرة).

● ومن شعبة العمليات انتقل اللواء عبد المنعم رياض أواخر سنة ١٩٦٢، إلى وظيفة جديدة صنعت له (أو فصلت له على حد التعبير البيروقراطي المصري) حيث أصبح مستشارا لقيادة القوات الجوية لشئون الدفاع الجوي، ورغم طول اسم الوظيفة فالواضح أن عمل عبد المنعم رياض فيها كان أقرب ما يكون إلى أن يكون عملا استشاريا.

● رئيس أركان القيادة العربية الموحدة، وهي قيادة عربية تأسست بالموازاة للجيوش العربية الوطنية، وتولى قيادتها الفريق علي علي عامر رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية، وهو الذي اختار عبد المنعم رياض ليكون معه.

● قائد جبهة الأردن في حرب ١٩٦٧.

(٦٥)

في هذه الفترات شغل رياض نفسه بالدراسة العسكرية والاستراتيجية، والدراسة الحرة أيضًا، وكأنما كان يعلي ويعزز من عناصر تكوينه الاستراتيجي السياسي، وعلى سبيل المثال فإنه في أثناء عمل رياض مستشارا لقيادة القوات الجوية في أواخر ١٩٦٢ أتيحت له فرصة لأن يطلع على مجريات الأمور في سلاح القوات الجوية الذي لم يكن قد عمل به من قبل، ولم يكن من المتوقع أن يعمل فيه.

في هذه الفترة بدأ رياض خطوات تأسيس القوة الرابعة، قوة الدفاع الجوي، وذلك من خلال وضع تنظيم يربط في قيادة واحدة بين: المدفعية، والصواريخ المضادة للطائرات، وتشكيلات الطائرات الاعتراضية المقاتلة. كان رياض يؤمن وينادي بضرورة وجود قيادة الدفاع الجوي منذ عدوان ١٩٥٦، لكن عقلية القيادات العسكرية في مصر كانت تفضل أن تظل هذه القيادة فرعا من القوات الجوية، وهو الوضع الذي ظل مأخوذا به في توحيد قيادة القوات الجوية والدفاع الجوي، ولم يحدث الانفصال إلا بعد استشهاد رياض، ومن الطريف أن أول قائد للدفاع الجوي وهو محمد علي فهمي كان هو الذي قاد الدفاع الجوي في حرب أكتوبر ١٩٧٣.

(٦٦)

وفي هذه الفترة أيضًا بدأت معاناة عبد المنعم رياض الحقيقية من الطبقة التي

تسميها أدبياتنا التاريخية «أهل الثقة»، الذين فُرضوا على المواقع المؤثرة في القوات المسلحة، وانقلبت بهم أوضاع الأقدمية العسكرية.

صحيح أن عبد المنعم رياض خدم (منذ ١٩٥٣) كضابط عظيم تحت قيادة عبد الحكيم عامر التالي له في كل شيء، فقد أصبح عبد الحكيم عامر قائدا للقوات المسلحة في ١٩٥٣، لكن المشير عامر كان يعرف قدر رياض، وكانت شخصية عامر الآسرة كفيلة، إلى حد كبير، بإزالة وإذابة الحساسيات مع من عملوا معه تحت قيادته من القادة الذين كانوا أكبر منه في السن، والرتبة، والخبرة، لكن المشكلة تبلورت مع شخصيات تولت في عهد عبد الحكيم عامر مسئوليات كبرى، من طراز شمس بدران، وهؤلاء لم يكونوا قادرين على تحمل عبد المنعم رياض بأقدميته، وعلمه، ولم يكن رياض هو الآخر قادرًا على تحملهم بغطرستهم، ونفوذهم.

وربما كانت خلافات رياض وشمس بدران نموذجا للصراع الذي عاشه عبد المنعم رياض.

تروي بعض الأدبيات المتاحة عن هذه الفترة أن بوادر الصدام بين عبد المنعم رياض وشمس بدران بدأت أوائل سنة ١٩٦٢، وكان عبد المنعم رياض في ذلك الوقت نائب رئيس شعبة العمليات، وكان رياض قد أعد برنامجا شاملا لتدريب كل أفراد القوات المسلحة، بما فيها البحرية والطيران، وذلك من أجل إيجاد نوع من التعاون الوثيق بين الأسلحة المختلفة، بعد أن أثبت عدوان سنة ١٩٥٦ أن كل سلاح من الأسلحة الثلاثة (القوات البرية البحرية والطيران) كان يحارب المعركة وحده، ودون أي قدر من التعاون والتنسيق مع بقية الأسلحة.

(٦٧)

وقد سجل الأستاذ عبد التواب عبد الحي بطريقة طريفة وموحية ما روي له من أن عبد المنعم رياض كان قد بدأ تنفيذ برنامجه بتدريبات مشتركة بين رئاسات الأسلحة:

> «وفي الحرب، كما في المناورة والتدريب، فإن الشئون الإدارية (إمداد وتموين ومواصلات واتصال)، تتصدر مكانا مهما، توافقا مع القاعدة «جندي بلا طعام.. جندي بلا سلاح!».

«ولأهمية الشئون الإدارية فقد فرّغ رياض لها ضابطا كبيرا يتولي مسئولية العملية أثناء تدريب رئاسات الأسلحة، لكنه وهو في أثناء انشغاله بالتجهيز لعملية التدريب، فوجئ بنقل ضابط الشئون الإدارية الذي عينه واعتمد عليه، إلى وظيفة مدنية، وأمر النقل مشفوع بضرورة التنفيذ الفوري».

«واستشاط عبد المنعم رياض من الغضب، وطلب شمس بدران، وكان أيامها مديرًا لمكتب القائد العام عبد الحكيم عامر، ورد عليه شمس بدران: «إزاي الكلام ده؟ طيب ده مشروع التدريب بتاعك ينهد بالشكل ده لا.. لا.. فلان (الضابط المنقول) يستني كما كنت!»، وهو تعبير عسكري معناه: يبقي كما كان، ووضع شمس السماعة ثم رفعها بعد لحظة واحدة وطلب رئيس العمليات نفسه: «فلان الضابط المنقول يرمي اللي في ايده وينفذ النقل حالا!».

(٦٨)

ويذهب الأستاذ عبد التواب عبد الحي، لسبب لست أدريه تماما، إلى أن أسلوب شمس بدران في هذا النوع أو النمط من إقلاق عبد المنعم رياض قد تكرر أيضًا في وظيفته الاستشارية الجديدة بالقوات الجوية:

«كان رياض يريد أن ينشئ نظاما حقيقيا وعصريا للدفاع الجوي، وضع الخطة، واختار القادة المنفذين، وأعطي لكل منهم واجباته ليبدأ التنفيذ، لكنه فوجئ بنقل جميع القادة الذين اختارهم ليعاونوه، بعضهم إلى المعاش، والبعض إلى أسلحة أخرى، والبعض إلى وظائف مدنية، وعلى أمر النقل توقيع: شمس بدران! وهنا، وبكل رجولته وعناده في الحق، وقف رياض في وجه شمس بدران، كان عدد المنقولين ١٠ ضباط، فأضاف رياض اسمه هو نفسه إلى الكشف ليصبح الضابط الـ١١، قدم استقالته، لولا أن تدخل آخر الأمر مَنْ يملك ألا يقبل الاستقالة!».

(٦٩)

وقد روى أستاذنا الدكتور زكي سويدان في مذكراته عن عبد المنعم رياض ما يدل على موقف عبد المنعم رياض الحاد من شمس بدران (الذي هو وزير الحربية) في تلك الفترة:

«وقد علمت أنه ذهب قبل النكسة إلى وزير الحربية السيد شمس بدران وقال له: إن انتشار القوات المسلحة في سيناء بهذا الشكل، بدون غطاء جوي مكفول، سيؤدي إلى سهولة افتراسها بقوات العدو، وأنا أطلب سرعة تجميع وعودة القوات المسلحة، وأجابه وزير الحربية بأن هذا ليس من اختصاصك، وأجابه الشهيد: الله يلعنك أنت واللي عينك.. وانصرف، وكان هذا اللقاء سبب تأخير ترقية الشهيد إلى رتبة فريق قبل تاريخ النكسة».

(٧٠)

في الفترة من ١٢ إلى ١٧ يناير عام ١٩٦٤ فيما سمي بمؤتمر القمة العربي الأول (وإن كانت هناك قمة عربية سابقة في إنشاص)، اجتمع ملوك ورؤساء الدول العربية وتدارسوا أبعاد المشاركة الفعلية في الأعمال البناءة الجماعية، وصدرت قراراتهم وتوصياتهم تؤكد على أن قيام إسرائيل هو الخطر الأساسي الذي أجمعت الأمة العربية بأسرها على دفعه، ومن ثم فإن على الدول العربية أن تضع الخطط اللازمة لمعالجة الجوانب السياسية والاقتصادية والإعلامية، حتى إذا لم تتحقق النتائج المطلوبة كان الاستعداد العسكري العربي الجماعي القائم، بعد استكماله، هو الوسيلة الأخيرة العملية للقضاء على المشروع الإسرائيلي.

وقد سارع الملوك والرؤساء العرب بتنفيذ قرارهم السابق من خلال قرار آخر قرروا فيه إنشاء قيادة عربية موحدة لجيوش الدول العربية فورا.

واختير الفريق أول علي عامر قائدا عامًا لها، وترك له أن يختار رئيس الأركان الذي يعاونه في عمله، وقد آثر علي عامر أن يختار عبد المنعم رياض لهذه المهمة.

(٧١)

يرى بعض كتاب التاريخ أن رياض قد أبعد عن قيادة القوات المسلحة المصرية إبعادا غير مجد، لكن الحقيقة أنه ، في واقع الأمر، حظي بفرصة ذهبية حين اختير رئيسًا للأركان للقيادة العربية الموحدة، فقد بقي في قلب العسكرية وعلومها، وإن كان قد ابتعد أيضًا عن الممارسات غير العسكرية في قيادة الجيش المصري.

□

وقد صدر قرار تعيين اللواء عبد المنعم رياض رئيسًا لأركان القيادة العربية الموحدة اعتبارا من ١٠ مارس ١٩٦٤.

ومن الجدير بالذكر أن هذا اليوم وافق يوم تشييع جثمانه (أو اليوم التالي لاستشهاده) فيما بعد ٥ سنوات.

ولا شك في أن عبد المنعم رياض وجد في مواقعه الجديدة فرصة أراحته بالبعد عن الصراعات الدفينة، وأتاحت له مزيدا من الاطلاع والعلاقات والخبرات على مستوى أوسع بكثير من المستوى المصري، أتاحت له الاتصال المباشر بالزعماء والقادة العرب وقادة الأسلحة والجيوش العربية.

كما أتاحت هذه المواقع الاستشرافية لعبد المنعم رياض رؤى مقارنة ومتكاملة، ودراسات واسعة المدى.

وظل شهيدنا يعمل ويدرس ويسافر ويلتقي بالملوك والرؤساء والقادة ويضع الخطط ويناقش في التفصيلات، ويقدر الإمكانات ويعيد في كل هذا الميدان الكبير حتى تهيأت له خبرة واسعة على درجة رفيعة من الشمول والدقة في المجال العربي.

(٧٢)

وكان الرئيس عبد الناصر يحرص على اصطحاب الشهيد عبد المنعم رياض إلى مؤتمرات القمة العربية، ولم يكن الوفد المصري وحده هو المستفيد من وجود عبد المنعم رياض، ولكن الوفود العربية والقضية العربية كانت تحظى بأكثر الفرص ذهبية بما كان رياض يتيحه من إضفاء جو الدراسة الموضوعية والخطط الهادفة.

ومن الجدير بالإعجاب أن نعرف أن رياض في ذلك الوقت كان يشير بإعطاء أولوية التنفيذ لمشروعين مهمين يتعلقان بالمواصلات بين السعودية والأردن هما:

- خط سكة حديد يربط بين تبوك على الحدود بين البلدين، ومعان في الأردن.
- وطريق آخر بري يربط كذلك بين المدينتين، مارا بقلعة البدورة.

وكان عندما يسألونه يجيب: «والله أنا راجل بأفصل زي الترزي.. ما تدنيش قماش، أفصل إيه؟ بإيه؟!».

(٧٣)

كان عبد المنعم رياض أمينا إلى أقصى حد في ممارسته لوظيفته في القيادة العربية الموحدة، وقد دفعته أمانته في سنتي خمس وستين، وست وستين (٦٥ و١٩٦٦) إلى مداومة الإنذار والتحذير من سوء موقف القوات الجوية على الجبهات العربية الثلاث، وظل يدعو إلى الإسراع في تدعيم الدفاع، وكان يجأر بضرورة العناية بالمجال الجوي لدول الجبهتين الشمالية والشرقية (سوريا والأردن ولبنان).

وكان يلفت النظر إلى حقيقة بسيطة تجاهلتها أبصار قادة ذلك الزمان، وهي أن الفصل من الناحية الجوية بين جبهات المواجهة الإسرائيلية في هذه الدول مستحيل، نظرا لأن السرعات الفائقة للطيران الحديث تتطلب مدى واسعًا، وهو ما لا يتوافر مع صغر مساحات هذه الدول ومجالاتها الجوية. لهذا السبب قدم اقتراحه إنشاء «مجموعة عمل جوية» من هذه الدول تقوم بالسيطرة على أعمال قتال القوات الجوية لهذه الدول أمام عدو يدير قواته على جبهاتها الثلاث وفق نظام مركزي موحد ومندمج في جهاز عسكري واحد.

وبعبارة أبسط كان عبد المنعم رياض مستاء أشد الاستياء من أن تكون الجبهة العربية شرق إسرائيل وهي مساحة صغيرة تقطعها الطائرات في دقائق قليلة مقسمة بين ثلاث دول على حين أن الجانب الإسرائيلي يخضع لقيادة واحدة.

(٧٤)

وقد قال الفريق أول علي عامر رئيس القيادة العربية المشتركة إنه اختار رياض ليكون معه رئيسًا لأركان القيادة، لأنه جدير بثقة مَنْ يعمل معهم، ومَنْ يعملون معه، ولأنه يؤمن بالرسالة التي عرضتها علينا مؤتمرات ملوك ورؤساء الدول العربية.

وفي موضع آخر قال الفريق أول علي عامر:

«ظهرت عندئذ الحاجة لقائد يعاونني، وكنت أتطلع لرجل على خلق

عظيم، لمحارب متمكن من فنون الحرب، دربته المعارك فأحسنت تدريبه، لشخصية اجتماعية تعرف كيف تربط في مودة بين ضباط دعوا للجهاد فجاءوا من كل بلد عربي.. ومن أجل ذلك اخترت رياض.. كان تلميذًا لي بالمدرسة الحربية، وكان أول مَنْ اتصل بي عن قرب أيام كان يعمل بشعبة العمليات، وكنت رئيسًا لأركان حرب قوات الجمهورية العربية المتحدة، ثم تتبعت بعد ذلك إنتاجه وعسكريته النظيفة، وزاد مع الزمن إعجابي به».

وقد بدأت القيادة العربية المشتركة في شأن ذا صلة وثيقة بمؤتمرات القمة العربية، فقد برز دور دراساتها بوضوح في مؤتمر القمة العربية الثالث الذي انعقد بين ١٣ و١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٥ في الدار البيضاء، وكان من بين قراراته: «دعم القيادة العربية الموحدة».

(٧٥)

وننتقل الآن إلى مذكرات الدكتور زكي سويدان الذي كان متيما بكل مَنْ كانوا يتصفون بقوة الشخصية والكفاءة، ومن هنا يأتي إعجاب زكي سويدان الشديد بشخصية الشهيد عبد المنعم رياض في مراحل حياته المختلفة،وبقدرته على قول الحق بقوة، والتعبير عما يعتقده بلا خوف.

يروي الدكتور سويدان ملامح كثيرة من ملامح شخصية الشهيد عبد المنعم رياض في مواضع متعددة من ذكرياته التي تدارسناها في كتابنا «أقوى من السلطة». وربما كان من المفيد أن ننقل للقارئ بعض هذه الفقرات على هيئة عبارات متوالية:

«وفي عام ١٩٤٥ سافر إلى انجلترا للدراسة في لاركهيل، وقام بزيارة أخيه دكتور محمود رياض الذي كان يدرس هو الآخر في انجلترا لدرجة دكتور في الهندسة».

«أذكر حديث المشير عبد المنعم رياض وهو يقول: متى كنت ضابطا بالجيش فإن أهم الواجبات أن تطبق شفتيك، فإن الثرثرة أفتك الأسلحة بالجيش».

(٧٦)

كذلك فقد روى الدكتور سويدان على لسان عبد المنعم رياض بعض ذكرياته عن حرب اليمن:

«وقد ذكر لي فيما بعد عام ١٩٦٨ المرحوم الفريق عبد المنعم رياض عند توليه القيادة أنه حدثت تصفية للقوات المصرية في اليمن مما أضعفها كثيرًا، يتعذر استعاضته، وكان الأجدر بمصر أن تولي اهتمامها بالسودان، فهو العمق الطبيعي لمصر، وكان يمكن أن يكون مركز مصر في هذه الحالة مركزا قويا جدًّا.

□

وأضاف الفريق أنه يلقى صعوبة في التمويل بل وفي اختيار أهم المعدات الحربية فكان يطالب بتقوية السلاح الجوي قائلا:

«إن إسرائيل (تعرف) ما يهمها، فهي تقوم بزيادة السلاح الجوي وهم يعلمون جيدًا أهمية هذا السلاح في الحرب، كما أنهم يراعون الاقتصاد وصرف ثمن المشتريات المهمة للحروب، وكان الأجدر بنا أن نتبع هذه التصرفات».

(٧٧)

ونختم هذا الفصل بفقرات ننقلها عن أعظم مقال كتب في رثاء الشهيد عبد المنعم رياض، وهو المقال الذي كتبه الفريق عامر خماش رئيس أركان حرب الجيش الأردني، وقد كتبه الرجل عقب استشهاد عبد المنعم رياض ونشره في جريدة الأخبار ١٣ مارس ١٩٦٩.. حيث قال:

> «إن صلتي بالفقيد الشهيد البطل ترجع إلى خمس سنوات مضت، وبالتحديد إلى يناير عام ١٩٦٤، عندما انعقد مؤتمر القمة العربي الأول الذي انتخب على إثره الشهيد عبد المنعم رياض رئيسًا لأركان حرب القيادة الموحدة، ومنذ ذلك الحين وصلتي به تتعدى كل حدود، تزداد يومًا بعد يوم متانة وقوة، ومَنْ هو ذلك الشخص الذي يعرف عبد المنعم رياض عن قرب ولا يحبه، ولا يحرص على توثيق العلاقة معه».
>
> «إنني أعتبر أن الشهيد عبد المنعم رياض كان فذا في كفاءته العسكرية، يتحلى بكل صفات القائد الناجح.. الشخصية القوية مع وجود المرونة الكاملة، خلال مزاملتي له في الجبهة الأردنية أدركت بحق ما يتحلي به من شجاعة نادرة، وصبر وقوة تحمل، ويكفي أن أقول إنه في أثناء حرب حزيران

(يونيو) ١٩٦٧ لم ينم الليالي الخمس الأولى من القتال دقيقة واحدة، كان يعمل في دأب عجيب متحكما في أعصابه رغم ذلك».

«وفي كل مكان ذهبت إليه في الاتحاد السوفيتي أو بريطانيا كنت أسمع الثناء العظيم على الكفاءة العسكرية التي يتمتع بها عبد المنعم رياض، بالإضافة إلى سعة اطلاعه، وشخصيته النادرة، ومرونته الدبلوماسية».

«وكل ما سمعته عن الشهيد لم يتجاوز الحقيقة في شيء، بل أكاد أقول إنه لم يوفه حقه من الثناء، فشخصية عبد المنعم رياض متعددة الجوانب والمواهب».

«وكان يتمتع بدبلوماسية رائعة، وأذكر أنه كان في الاجتماعات التي تتم على صعيد العسكريين العرب يستطيع أن يخلص من المواقف الصعبة بحضور بديهته، وفكاهته المصرية الأصيلة، وبالتالي كان بأسلوبه هذا يهيئ جو الاجتماع لإيجاد مجال تفاهم وتعاون أفضل».

(٧٨)

ويمضي الفريق خماش في هذا التقييم الموضوعي الجميل فيقول:

«كان عبد المنعم رياض رجلا واسع المعرفة والثقافة، كنت تجلس إليه فتعرف من أول وهلة أنه مطلع يفهم الأوضاع السياسية والاقتصادية العربية والعالمية، وقد كان هذا الاطلاع يؤهله دوما لاتخاذ قرارات عسكرية مناسبة ومتصلة بالواقع السياسي والاقتصادي في العالم العربي».

«إن عبد المنعم رياض كانت تتمثل فيه كل صفات القائد الناجح، عسكريًا بارزا فذا، دبلوماسيا بارعا مثقفا واسع الثقافة، حاضر البديهة، مؤمنا بالله وبقوميته العربية».

«إن هذه الصفات كان لها الفضل الأكبر في إيجاد تقارب عسكري عربي، فهذا الرجل كان موضع إعجاب وتقدير واحترام جميع المسئولين في الدول العربية، وبالأخص في الأردن. إن هناك ما يشبه التقديس لهذا الرجل من قبل جميع فئات الشعب الأردني وطبقاته ملكا وشعبا وجيشا، وبرقية جلالة

الملك حسين إلى سيادة الرئيس عبد الناصر للتعزية في رحيل الشهيد رياض تؤكد ذلك، إذ دعاه فيها بأخي وصديقي».

«إن عبد المنعم رياض من الأبطال الشهداء الذين دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه في العالم العربي، وأن استشهاده بهذا الأسلوب البطولي هو فاتحة عهد جديد، وأرجو من الله أن يعوضنا جميعا عن فقده، وهنيئا له بالشهادة التي يتمناها كل مَنْ يرتدي هذا اللباس في سبيل معركتنا الواحدة ضد هذا العدو الغادر اللئيم».

«ويشرفني في هذا المقام أن أقول بأنني كنت أعتبر نفسي خلال مزاملتي إياه في الجبهة الأردنية تلميذًا، أتتلمذ على يديه، وسنظل جميعا نتخذه نبراسا هاديا، وقدوة نقتدي بها حتى نلحق به على طريق تحقيق النصر لأمتنا العربية».

الباب الثاني

الاستـواء

الفصل الرابع
الشخصية

(٧٩)

تمتع عبد المنعم رياض بشخصية آسرة، كانت الثقافة خير معين له على أن يكون مقنعا ومحبوبا، وكان حسمه يزيد من ثقة المرءوسين به، ومن فخر المتعاملين معه بمعرفتهم به، وكان رجلا ممتعا قادرًا على أن يشيع البهجة في أي مكان يحل به، وكان محاورا جيدًا، ومستمعا جيدًا، ومتحدثا جيدًا.

كان عبد المنعم رياض صاحب شخصية متكاملة أوتيت حظها من المعرفة العامة، ومن المعرفة المتخصصة، ومضت في حياتها متدرجة من خطوة إلى التي تليها، وقد رزق معرفة أبناء مهنته وحبهم، كما رزق تقدير أبناء المهن الأخرى وصداقتهم. كان إباؤه سمة غالبة على سلوكه، لكنه لم يكن بعيدا عن العطف والحب ورعاية الآخرين. كان سلوكه نموذجا للسلوك القويم دون ادعاء، ودون ابتعاد عن الناس.

وكان رياض يقف مع المظلوم إلى أن يأخذ له حقه، ويقف ضد الظالم بيده وقلبه وكل شجاعته. كان في معاملاته وتعاملاته حريصا ما استطاع على القيم الإنسانية.

(٨٠)

ولعل خلاصة القول في صفات رياض أنه كان مثالا لاستقامة الخلق، وكفاءة الرجل الفني، وأمانة المسئول القوي، وتقدير الرؤساء، واحترام المرءوسين، فضلا عما امتاز به من سلامة التفكير، وعمق البحث، ودقة الفهم، وكفاءة الأداء.

أما على مستوى الأستاذية فقد كان رياض أستاذا متمكنا، ومعلما قديرا، كان يقنع

تلاميذه ومرءوسيه لأنه يعلم، ولأنه يعرف كيف يعلم، ولأنه يملك القدرة على الإقناع، ولأنه كان في عمله أستاذا بالسليقة، ولأن أستاذيته كانت واضحة الأصول والفصول.

نقل عبد التواب عبد الحي ما روي له عن زيارة عبد المنعم رياض إلى العراق:

> «وانبرى ضابط عراقي يجلس قبالته، قائلا بحماسة وانفعال صادقين: «سيدي الفريق.. ما فتحنا للحديث موضوعا إلا وجدناك بحرا فيه، وصدقني إذا قلت لك إنني أصبحت أخشي الكلام معك في أي شيء، حتى لا تحرجني معلوماتي المحدودة، وإن كنت أستمتع بحديثك دائمًا وأعرف أكثر!».

(٨١)

كانت لعبد المنعم رياض شخصية تتميز بالذكاء والأصالة والابتكار، ولم يكن يذعن للعرف السائد، وإنما كان يحاول دوما أن يضع من التقاليد ما يتفق والمصلحة العامة، وحين تولى مسئولية مدرسة المدفعية المضادة للطائرات أسس تقليدا جديدا لاختيار المدرسين، فعلى حين كان التقليد المعمول به هو اختيار هؤلاء من بين أوائل الفرق التعليمية، كان عبد المنعم رياض يؤمن بأنه ليس كل من يتفوق في الدراسة يمكن أن يكون مدرسًا صالحا: «فالتفوق في الدراسة أساسه أن تأخذ من العلم.. والامتياز في التدريس قوامه أن تعطي من العلم».

وعلى هذا الأساس قرر عبد المنعم رياض فترة شهرين لكل مدرس جديد يعين في المدرسة يوضع فيها تحت الاختبار كمدرس، ثم نُظر بعدها في مدى صلاحيته للتدريس، ى وكان رياض حريصًا على أن يحضر هو وأكبر عدد من المدرسين القدامى المحاضرات التي يلقيها الضابط الجديد، وكان إذا حضر ظل صامتا طوال المحاضرة يسجل ملاحظاته، أحيانا في ورقة في يديه وأحيانا في رأسه، ثم كان يستطلع آراء زملائه المدرسين، ويعقد اجتماعا (أو مؤتمرا بلغة القوات المسلحة) صغيرا يوجه فيه المدرسين الجدد عاملا على تكوينهم وتأهيلهم، فإذا انتهت فترة الشهرين، كان قرار رياض بعد دراسة واحتكاك باستبقاء المدرس أو إعادته إلى وحدته.

(٨٢)

وقبل ذلك كان عبد المنعم رياض وهو مدرس في مدرسة المدفعية يلقي محاضراته

باللغة الإنجليزية، وكان يعرف أن تلامذته يلقون بعض الجهد في ذلك. ولم يكن رياض يفعل ذلك اعتزازا بإتقانه هذه اللغة، ولكنه كان حريصًا على أن يزود طلابه بالثقافة التكتيكية باللغة التي يستطيعون أن يرجعوا فيها إلى مصادر العلم ومراجعه، أو بعبارة أخرى لم يكن رياض يجعل من درسه نهاية للمقتصد فحسب، وإنما كان يجعل منه أيضًا بداية للمجتهد.

(٨٣)

كانت لعبد المنعم رياض على المستوى الشخصي قدرات فنية وتقنية على درجة عالية من النضج والكفاءة، ومن ذلك ما حدث حين أوفد إلى جنيف (١٩٥٣) على رأس لجنة لوضع مواصفات تسلم صفقة من المدافع المضادة للطائرات كانت الحكومة المصرية قد تعاقدت عليها (١٩٥١) مع مصانع سبانو سويزا السويسرية، وحين اجتمع رياض بالموردين ذكر لهم أن الطيران الحديث قد تطور تطورا كبيرا في السنوات الثلاث الأخيرة، وكانت تلك الحقبة قد شهدت التوسع في استخدام النفاثات بحيث أصبحت وسيلة تغذية هذا النوع من المدافع بالطلقات غير مواكبة للسرعة التي وصلت إليها الطائرات الحديثة وأبدي الموردون عدم اقتناعهم بوجهة نظر رياض، وخاصة أن حلف الأطلنطي كان قد تعاقد معهم على المدفع ذاته.

ونشطت المناقشات العلمية حول هذه النقطة، واستطاع رياض مع قدر من المثابرة أن يحملهم على الاقتناع برأيه وبخاصة بعدما استشهد لهم بالحسابات الفنية الدقيقة.

وهكذا عدل الجانب الغربي عن رأيه، وشكل لجنة علمية من بين مهندسيه بالاشتراك مع عبد المنعم رياض لتتولي تطوير المدفع.

وبدأت اللجنة في إجراء تجاربها الإنتاجية الأولى بعدما قطعت شوطا بعيدا، ولكن هذه التجارب أبانت عن فشل التصميم بالنسبة لأحد الأجزاء، واستعصى على تلك اللجنة حل هذه المشكلة، وعندئذ اقترح رياض أن تستدعي اللجنة أحد أساتذة جامعة القاهرة لدراسة هذه المشكلة وأكد لهم ثقته التامة في قدرة هذا الأستاذ.

وتم استقدام الأستاذ المصري فنجح في مهمته وعاد رياض بالتطوير الجديد بالمدفع المضاد للطائرات، وبعدها بعام كامل طلب حلف الأطلنطي أن تجري على

مدافعه التي تعاقد عليها التعديلات التي أجريت لصفقة الجيش المصري بفضل قدرة رياض الفائقة.

(٨٤)

وبجدر بنا أن ننتقل للقارئ ما تضمنته مناقشة رياض حول هذا المدفع:

«المدفع كما ترى يدار يدويا.. ولابد أن يدار كهربائيا، لتدور ماسورته حول نفسها ١٨٠ درجة كاملة، في أقل وقت ممكن، هذا يناسب كثيرًا سرعة الطيران الحربي النفاث الذي بدأ يسود سماء العالم! أيضًا خزنة الطلقات تتسع لخمسين طلقة فقط، قوة نيران قصيرة، ووقت يضيع في استبدال الخزنة الفارغة، وهذا يقلل كثيرًا من كفاءة المدفع، في مواجهة الطيران النفاث الذي اختزل بسرعته الفائقة «فترة التعرض للنيران» إلى أقل من النصف!».

«وأمسك كبير المصممين السويسريين بنوتة صغيرة، راح يدون فيها بسرعة ملاحظات رياض العميقة الباهرة، والحل؟ أجاب رياض: «نكهرب المدفع أولا، ونصمم له جهازا جديدا للتغذية المستمرة، بدلا من نظام خزن الطلقات».

وتعهد رياض بأن يقدم للمصنع خلال يومين تصميما جديدا لجهاز تغذية المدفع.

ومن الطريف والمؤلم أن إسرائيل اشترت هي الأخرى صفقة من هذا السلاح سنة ١٩٥٤، وظل المدفع الاسبانو سويزا عيار ٣٠ ميللي ضمن التسليح الإسرائيلي المضاد للطائرات، يعمل بجهاز التغذية الذي صممه عبد المنعم رياض!

يذكر التاريخ العسكري أن اثنين فقط بين ضباط المدفعية المصرية المضادة للطائرات: عبد المنعم رياض، والعميد محمد نجم الدين، وصل كل منهما إلى مستوى المستخدم والمصمم معا! ومثلهما عند مصانع الأسلحة يعتبر «عملة نادرة».

ولقد حاولت مصانع سبانو سويزا السويسرية (سنة ١٩٦١) أن تقتني العملتين النادرتين: اللواء عبد المنعم رياض، والعميد نجم الدين، والمرتب ١٠٠٠ دولار شهريا، (حوالي ٦٠٠ جنيه مصري بسعر المبادلة)، مثل هذا المبلغ كان يعادل يومها ٥ أمثال مرتب رياض من رتبته! لكنه رفض، وبقي ليخدم بعلمه سلاح وطنه، بينما قبل العميد نجم الدين الوظيفة، وطار إلى جنيف، وبقيَ هناك!

(٨٥)

كان من أبرز سمات شخصية عبد المنعم رياض اهتمامه الشديد بالعلم على المستويين الشخصي والعسكري، وكانت نظرة رياض إلى العلوم نظرة واسعة شاملة لا تقف عند حد، وإنما تتعدد فيها الاتجاهات لتلتقي في عقله الذكي الواعي.

وكان رياض يقرأ في كثير من فروع المعرفة، وكان يقرأ بصفة خاصة في فروع الاقتصاد ملبيا لاحتياجاته الفكرية التي أملت عليه دراسة مثل هذه العلوم التي لابد من الإلمام بها لكل قائد عظيم مثله.

كان يقرأ في الإلكترونيات مع صعوبتها ودقة تفصيلاتها، ولكن العون الحقيقي له على كل هذا كان يأتيه من نفسه ومن صبره ودأبه ومثابرته على تحقيق رغبته الملحة في التعرف على مسارات التقدم العلمي أولا بأول.

كان رياض رحمه الله لا يأنف أن يسأل فيما استغلق عليه فهمه، وكان يسعى في تواضع العلماء، ونبوغ المتعلمين إلى لقاء الأساتذة يتلقى على أيديهم العلم عن قرب وفي أروع صورة لطالب العلم الذي يحرص على ورود مناهله.

(٨٦)

كان عبد المنعم رياض من بيت علم، وقد بينا كيف ضرب شقيقاه وشقيقتاه بسهم وافر من التفوق في تخصصاتهم، حتى كانوا كالباقة التي تفوح بالعطر، ولم يكن أخوال رياض من قبل هذا إلا مثلا لأشقائه،وقد انعكس أثر هذا العلم الأصيل على أخلاق الأسرة بالأثر الطبيعي، فارتفع بأخلاقهم ونفوسهم إلى قمة التواضع، وعلو الهمة، وصفاء النفس، وشكر النعمة والبعد عن المظهريات الكاذبة.

وليس أدل على تعلقه بالعلم مما فعله في أول العام الدراسي (١٩٦٦/ ١٩٧٧) حيث توجه وهو رئيس لأركان حرب القيادة العربية الموحدة إلى عميد كلية تجارة عين شمس فطلب إليه أن يوافق على قبوله طالبا منتسبا بالسنة الأولى، ودهش العميد لهذا الطلب ولم يقلل من دهشته ما أخبره به شهيدنا من أنه ينوي إعداد رسالة عن (تغير اتجاه المجهود الرئيسي لقوات الهجوم)، وهي رسالة تتطلب المعرفة التامة بعلوم الاقتصاد إلى جانب القدرة والفن الاستراتيجي.

وعرض العميد (وهو الدكتور عبد العزيز حجازي رئيس الوزراء فيما بعد) على الفريق رياض أن يختار له بعض الأساتذة ليعاونه فيما يحتاج إليه من دراسة، ولكنه أبي إلا أن يبدأ بداية منهجية، ولم يكن في وسع العميد إلا أن يجيب طلب الفريق، فلما كان الامتحان ذهب الرجل الثاني في القيادة العربية الموحدة يؤدي الامتحان مع طلبته، لكن نذر الحرب سرعان ما ظهرت في الأفق واستدعي رياض لقيادة جبهة الأردن، واندلعت حرب الأيام الستة وانتهت، وظهرت نتيجة الفرقة الأولى من كلية التجارة تعلن عن نجاح رياض في المواد التي أدى فيها الامتحان، ولما كان قد حضر كل مواد الامتحان ما عدا مادتين فقد أهله نجاحه في المواد التي حضر امتحاناتها للانتقال إلى السنة الثانية.

(٨٧)

لم يكن عبد المنعم رياض في شبابه (أو بعد أن تقدم في السن) يكف عن الاستذكار بل كان يخصص له الساعات، وكان جيد التركيز إلى حد أن المعلومات كانت تنطبع في ذاكرته لأول وهلة، ولم يكن يعطي كل وقته للدرس والتحصيل، ولكنه لم يكن يقصر في حب العلم في الوقت الذي كان يمارس فيه الأنشطة التي بزغ نجمه فيها.

ولعلنا بعد أن تبينا القدر الحقيقي لشغف عبد المنعم رياض بالعلم ندرك أنه لم يترك كلية الطب في مطلع حياته هاربا من العلم ومحرابه، ولكنه اختار لنفسه الجندية علما ومحرابا، اعتزازا بها وتقديرا لشرفها ونبلها، ووفاء لوالده مثله الأعلى وموضع حبه وإجلاله.

(٨٨)

عاش رياض حياة عسكرية رياضية نموذجية ومتصلة، وقد مكنته هذه الحياة من أن يحتفظ بسلامة البدن، وقوة البنية، ولم تكن عنايته بقواه البدنية تقل عن عنايته بروحه وعقله ونفسه، إذ كان يدرك تمام الإدراك مدى أهمية التكامل بين أجهزة الإنسان المختلفة، وبين نموه العقلي والجسدي، وبين جهد الفكر والجسم.

كان منذ صغره يهوى ركوب الخيل، وكان حريصًا طيلة حياته على مزاولة الرياضة كل يوم، كما كان رئيسًا لنادي هليوبوليس للرماية والجوالة.

ومع هذا فإن حياته القصيرة لم تخل من الحادثات المرضية:

- فقد كسرت قدمه تحت عجلات سيارة وهو يؤدي واجبه في منع زميل له من مغادرة القشلاق أثناء نوبتجيته سنة ١٩٤٠، وسوف نورد قصة هذا الكسر بعد قليل!
- وتعرض للتجبيس مرة ثانية عندما وقع من فوق حصان كان يروضه سنة ١٩٥٤، وأصيب بكسر في عظام الترقوة!
- وكذلك أجري ثلاث جراحات أخرى: الفتاق، والزائدة الدودية، وتفتيت حصوة في الكلي اليمني.
- وفي سنواته الأخيرة أصيب رياض بالتهابات في القولون.
- أما المرض الأهم الذي أصيب به فكان هو تخثر الأوعية الدموية في ساقه اليمنى.

(٨٩)

ومن الجدير بالذكر أن عبد المنعم رياض، شأنه شأن أبناء جيله، تلقى مبكرًا صدمة من صدمات التعليم المصري الجاد الذي مروا به في ذلك الزمن، فقد رسب في السنة الثانية الابتدائية، وكان رسوبه في مادة الجغرافيا لأنه عجز عن إجابة السؤال الإجباري في الامتحان، وكان السؤال «ارسم خريطة للدنيا مبينا القارات والبحار والمحيطات والمضايق المهمة».

كذلك فإنه لما حصل على الابتدائية من مدرسة رأس التين حصل على ٧٠٪ فقط، وهو مجموع أقل من المجموع الذي حصل عليه بعد ذلك في الثانوية.

(٩٠)

كان عبد المنعم رياض قائدا صارما، حاسما، قاطع الرأي، صاحب كلمة واحدة، ولم يكن التهاون في القيادة يعرف إلى خلقه سبيلا، فقد كان مخلصا كل الإخلاص للتقاليد والنظم العسكرية، والأمثلة على هذا لا حصر لها.

من ذلك أن بعض خريجي الجامعة كانوا يمضون تحت قيادته فترة تدريبهم

الأخيرة سنة اثنتين وخمسين (١٩٥٢)، وكانت هذه الدراسة تؤهلهم للحصول على رتبة ملازم ثان احتياط، ورغب بعض هؤلاء في الحصول على تصريح لركوب المواصلات بنصف أجرة أسوة بالضباط، مع أنهم لم ينتموا إلى القوات المسلحة النظامية بعد، وأصر الطلبة على الحصول على التصريح وتحدوا أمر قائدهم الذي طلب إليهم الانصراف إلى عملهم اليومي.

وكان عبد المنعم رياض حاضرا فطلب إلى قائد الطلبة أن يكرر عليهم الأمر ثلاث مرات، ولكنهم لم ينصاعوا، وعندئذ حذرهم رياض من مغبة عدم الانضباط فلم يستجيبوا، فأدرك أنه لا فائدة من مخاطبة عقولهم وانصرف إلى القيادة فنصح بإيقاف تدريب هؤلاء على أن يسمح لهم بالقبول في السنة التالية ليبدءوا المرحلة من أولها، وألح شهيدنا على القيادة حتى أخذت برأيه، فعاد إلى الطلبة وأمرهم بخلع الزي العسكري، والعودة من حيث أتوا، ثم عبر لهم عن ترحيبه بهم إذا ما عادوا في العام التالي.

(٩١)

يروى أن مدير مكتب القائد العام (الفريق أول محمد فوزي) جاء لمقابلة رياض (رئيس الأركان) يومًا من الأيام متأخرًا عن موعده، معتذرا بأنه كان مع القائد العام، فقال له رياض في شمم وإباء ووضوح: «آسف لأنك لم تحترم موعدك معي، ولست مستعدا للتجاوز عن ذلك، وإذا ما أراد القائد العام أن يناقش الموضوع مرة أخرى فسوف أذهب إليه بنفسي».

وكان رياض يكن طيلة خدمته الاحترام الواجب لرؤسائه وأصحاب الرتب الأعلى، حتى عندما كان رئيسًا للأركان (أي في موقع الرجل الثاني في الجيش) فإنه كان يعامل الفريق أول فوزي باحترام شديد لم يفتأ الذين لاحظوه (حين كان من السهل على القريبين من اللامعين أن يدركوا مثل هذه العلاقات) أن عجبوا له، ولم يكن هذا إلا صورة العسكري المفطور على الأخلاق العسكرية.

(٩٢)

وكان عبد المنعم رياض بعد ذلك كله لا يرى في كل هذه المواهب والقدرات

والبطولات التي تميز بها شيئًا يستحق الفخر، فقد كان يعتقد أن هذا هو المستوى الذي يجب أن يكون عليه قادة القوات المسلحة. وكان لا يترك فرصة قبل ١٩٦٧م ليعبر فيها عن استيائه من مستوى الضباط الذين تعهد إليهم القيادة بمسئوليات خطيرة من باب تفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة. وكان رياض يقول في ذلك عبارة مركزة اشتهرت عنه واشتهر بها: «إن أصحاب العقول الساذجة يفسدون الجيش».

(٩٣)

ومما يصور مدى التزام عبد المنعم رياض ما يرويه قصة رواها عبد التواب عبد الحي له كان مصدرها أحد زملاء عبد المنعم رياض بعد استشهاده.

... صديق عاشر رياض تلك الأيام وخدم معه، حملني أمانة ألا أذكر اسمه.. يكشف لي سرًا:

«بعد دورة سيدي بشر التدريبية، عدنا إلى قشلاق منشية البكري في القاهرة، وذات نوبتجيتي، وكنت أنا نوبتجي البطارية، وهو نوبتجي الآلاي كله، استدعوني في البيت بالتليفون لأمر مهم، ذهبت أستأذنه، لم يوافق، مع أنه قبل أن يكون رئيسي، كان صديقي! لكن الواجب عنده، طوال عمره، كان فوق أي صداقة!».

«المهم تمردت عليه وأصررت على الخروج، قفزت إلى سيارة لوري وأدرت موتورها، وقلت له أضعه أمام الأمر الواقع: «منعم.. أنا خارج يعني خارج.. ونص ساعة بالكتير وتلاقيني هنا!»، وإذا به يصرخ في وجهي: «واجبي يحتم عليّ أن أمنعك من مغادرة القشلاق.. وأنا مضطر، رغم صداقتنا، أن أمنعك.. وبالقوة!»، ثم مد قدمه فوضعها تحت عجلة السيارة الأمامية! ماذا أفعل أمام إصراره على أداء واجبه؟ رفعت قدمي من فوق الدبرياج ممتثلا، لكن أي شيطان دهم الموقف لحظتها فجعل السيارة تقفز نصف متر للأمام، تدوس قدم رياض اليمني، تصيبه بكسور وشروخ، وآلام موجعة؟!».

يضيف الصديق:«والذي حدث تاليا جعلني أضع لرياض تمثالا في قلبي، فهو لم يبلغ إدارة الجيش».

«وفي المستشفى العسكري بكوبري القبة قال رياض: إن الذي كسر قدمه

برميل بنزين تدحرج فوقها قضاء وقدرا! ولم يذكر السبب الحقيقي لكسر قدمه في ملف خدمته، ولم يعرف به أهله: أنت الآن، ومن يقرأ كلامك، تعرفان!».

«ولابد أن تعرف أيضًا أن الجيش أيامها كان مباءة للأذية ودق الأسافين، أي ضابط كان يتلصص للآخر، ويتجسس عليه! وأنه لو أن رياض أبلغ بالسبب الحقيقي لكسر ساقه لحوكمت، وربما فصلت من الخدمة!».

«ولابد أن تعرف أخيرًا أني كنت قد قدمت في نفس الأسبوع شكوى ضد عبد المنعم رياض أطالب فيها أن أسبقه في الأقدمية!!».

(٩٤)

اجتهد الأستاذ عبد التواب عبد الحي في أن يصور الجانب الإنساني في شخصية عبد المنعم رياض فصوره على أنه جابر العثرات، كما قال موردًا قصصا لعبد المنعم رياض وهو يجبر في السر عثرات الكرام الذين زلزلت الحياة تحت أقدامهم أرض الستر والأمان!

- «موظف صغير لكنه شيخ على المعاش، يسكن غرفة في بدروم مجاور لبيت عبد المنعم رياض في شارع زفتى بمصر الجديدة، في نهاية مدة خدمته قبض مكافأة متواضعة، لكن العمر امتد به وتكاثرت عليه أمراض السكر، وتصلب الشرايين، حتى تبخر رقم المكافأة، عنده خمسة أولاد، كلهم يعملون ويكسبون، لكن واحدًا منهم لم يسأل فيه! أحس عبد المنعم رياض بمحنة الشيخ المقطوع من الدنيا، من حديث عابر لبواب العمارة رتب له خمسة جنيهات كل شهر، بالإضافة إلى حساب مفتوح في الصيدلية القريبة يصرف منها كل روشتات الطبيب! بعد استشهاد الفريق رياض جاء الرجل إلى شقيقته الدكتورة زاكية رياض يعزيها منحنيا على عصاه يولول: «آه يا ابني.. مين بعدك حيسأل عني»!».
- «فلاح معدم من الفيوم.. ابنه كان جنديا، واستشهد في سيناء في عدوان يونيو، أرسل بعد العدوان إلى رئيس الأركان يشكو له سوء حاله، من جيبه الخاص رتب له جابر العثرات ١٠ جنيهات شهريا».
- «السيدة منيرة م. ه. زوجة العامل محمد م. ح، شقيق الشهيد الرائد ع. م. ح، من شهداء معارك يونيو، أصيب العامل محمد بالشلل على إثر استشهاد شقيقه،

استنفد أجازاته المرضية فقطعوا عنه مرتبه، ولم يكن لقصر مدة خدمته يستحق معاشا! لجأت إلى الفريق رياض برسالة قليلة الكلمات، الرجل المريض دخل المستشفى ليعالج، والزوجة أطفالها الثلاثة كانت تصلهم كل شهر حوالة بريدية بثمانية جنيهات!».

- «جار في حي مصطفى باشا بالإسكندرية حيث شقة الفريق عبد المنعم رياض الصيفية المتواضعة ذات الإيجار القديم، والجار مستشار، لكنه شيخ على المعاش، مستور الحال، يملك معاشا وريع بعض الأطيان، لكنه مقطوع لا زوجة ولا ولد، فجأ مات المستشار الشيخ فلم يجد مَنْ يواري جثته التراب! مَنْ غير عبد المنعم رياض يبرز في مثل هذا الموقف الحزين؟ بنفسه أشرف على نقل الجثمان إلى مدافن الأسرة في القاهرة، وبنفسه وقف في مأتمه يتقبل العزاء! وكان للمستشار ثلاثة أبناء لأخته، وكلهم من كبار الموظفين، لم يظهروا إلا بعد أن دفن ليطالبوا فقط بأنصبتهم في الميراث!!».

(٩٥)

كذلك فقد روى عبد التواب عبد الحي ما قيل له من أن أعز أحباب رياض ورفاق صباه كان اسمه محمد فرج، زامله في الكتاب، وكانا فوق شواشي النخيل يقطفان البلح «العجر» قبل أن يطيب، وعلى أغصان شجر التوت يقطفان ويأكلان! لكن أغصان الدنيا تفرعت بالرفيقين كل في اتجاه، واحد أصبح رئيسًا لأركان القوات المسلحة برتبة فريق، والثاني أصبح شرطيا في إدارة مرور الإسكندرية برتبة عريف!

على أن عبد المنعم رياض بقي أكثر ما يكون وفاء لصديق صباه، كثيرًا ما سأله عنه العقيد أحمد حسن قائد مرور الإسكندرية كلما زار المدينة ليعرف مكان نوبته، ويفاجئه بالزيارة في أي شارع من شوارع الإسكندرية، كان!»

«وعندما سألت العقيد أحمد حسن: ألاقيه فين العريف محمد فرج؟ أجابني بتأثر: محمد فرج تعيش أنت.. مات موتة ربنا في ١٨ مارس ١٩٦٩، يعني بعد الشهيد بتسعة أيام!».

(٩٦)

كان عبد المنعم رياض والدا حقيقيا لجنوده، يحس بآلامهم وآمالهم ويعمل بكل ما أوتي من قوي على توفير الراحة والأمان لهم، وفيما كان يمر على الجبهة ذات ليلة من الليالي قارسة البرد، إذ وجد جنديا يرتعد في دركه، فتوجه إليه وسأله عن معطفه، فقال له الجندي إنه أعاره لزميل له خرج في وردية، فخلع رئيس الأركان معطفه وألبسه الجندي، ثم قال له في دعابة لطيفة: لا تنس أن تعيده إليّ في الصباح!

وحتى في الدقائق الأخيرة التي استشهد فيها البطل، صافح جنود المواقع المتقدمة فردا فردا، وقال لهم في دعابته اللطيفة الحانية: «ماتعملوا لنا شاي.. أنتم بخلاء واللا إيه؟».

(٩٧)

كان عبد المنعم رياض يؤمن بأن مكان القائد الحقيقي أن يكون وسط جنوده في المعركة، ولم يكن استشهاده في الخطوط الأمامية إلا دليلًا حيا على التزامه بهذه الصفة العسكرية الرفيعة من صفات القادة العظماء.

ويتداول العسكريون المصريون أن صلة عبد المنعم رياض بضباطه وجنوده لم تكن لتنقطع لحظة من اللحظات تعبيرًا عن قوله الذي لم يفتأ يكرره: «إن مكان القادة الصحيح وسط جنودهم.. وأقرب إلى المقدمة منهم إلى المؤخرة».

ولم يكن رياض يقتصر في هذا على ضربه القدوة بنفسه، ولكنه كان يحذر القادة يومًا بعد يوم من أننا «إذا حاربنا حرب القادة في المكاتب فالهزيمة محققة».

(٩٨)

وباختصار شديد فقد كان عبد المنعم رياض صلبا كالصخرة في مواجهة الرؤساء.. حليما وإنسانيا في مواجهة الصغار والمرءوسين.

وكان يقول: «أخطاء الصغار صغيرة يمكن معالجتها، ما دامت بغير قصد، وفي حدود ممارستهم لحق التجربة والخطأ، أما أخطاء الكبار فإنها دائمًا كبيرة!».

الفصل الخامس
الاستراتيجي

(٩٩)

ليس من شك في أن عبد المنعم رياض كان من أهم قادة الاستراتيجية العسكرية وخبرائها في الشرق الأوسط، ولم يكن هذا بحكم موقعه القيادي في القوات المسلحة المصرية والعربية فحسب، ولكن قدرة رياض الاستراتيجية هذه جاءت نتيجة لثلاثة عوامل تضافرت حتى كونت منه تلك الطاقة رفيعة المستوى والقدر والقدرة.

وأول هذه العوامل هو استعداد رياض ومواهبه الطبيعية وقدراته القيادية ومداركه الواسعة التي وهبها الله إياه، فقد كان عبد المنعم رياض بفطرته على أعلى درجات الاستعداد والكفاءة للتقبل، والانتفاع بما اكتسب من مهارات ومعارف، ولو أنه عمل في أي مجال من المجالات لكان قد حقق فيه تفوقا يتناسب مع تفوقه الذي حققه في القوات المسلحة.

(١٠٠)

وبالإضافة إلى هذا فقد كانت له رحمه الله خبراته الواسعة الممتدة لأكثر من ثلاثين عامًا متصلة اتصال الخيط الواحد حيث قضى عمره كله في صفوف القوات المسلحة مقاتلا وقائدا وأستاذا، وطيلة هذه السنوات الثلاثين كان رياض يعيش في المعركة وفي المعمعة، وقد التزم هذا الرجل بمهنته التزاما صوفيا فلم تعرف عنه رغبة في الخروج من المهنة، ولا على قواعدها، كما لم يسجل عليه ضجر أو ملل من مصاعبها.

أما العامل الثالث فتمثله ثقافة رياض الواسعة والتي لم يتوان يومًا عن تحصيلها

واكتسابها ثم تنميتها وصقلها بكل طريق، وقد تكونت له خلفية واسعة ذات درجة رفيعة في السياسة والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع والتاريخ، بالإضافة إلى اللغات التي كان يتقنها، وبالإضافة إلى إلمامه الجيد بمبادئ العلوم الطبيعية المتصلة بعمله، ولو أنك بحثت في جيل رياض من العسكريين جميعا ما وجدت من يضاهيه في هذه الناحية ولا من يقترب إليه.

وهكذا تضافرت هذه العوامل الثلاثة (من موهبة، وخبرة، وثقافة) على تكوين قدرة استراتيجية عالية لرياض استطاع بها به أن يسهم في تنسيق وتوجيه كافة قدرات الدولة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والمعنوية نحو الهدف الأسمى في تحرير التراب الوطني وتحقيق النصر على العدو في ظل أسوأ ظروف.

(١٠١)

جمع رياض في فكره بين المدرستين العسكريتين الغربية والشرقية، ومع أن الانتماء الجيد لمدرسة من المدرستين كان كفيلا له بدرجة رفيعة من التفوق الاستراتيجي، فإن الجمع بين المدرستين زاد من هذه الفرصة، وجعل رياض أكثر تفتحا وقدرة على فهم الذات، وعلى فهم الآخرين أيضًا.

وقد تربى عبد المنعم رياض على العقيدة الغربية فيما أتيح له من اتصال مبكر بالعسكرية البريطانية في أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم في أثناء دراسته في مدرسة المدفعية المضادة للطائرات، ثم في مدرسة فن المدفعية بإنجلترا (أغسطس ١٩٤٥ ـ مايو ١٩٤٦)، حيث حصل على تقدير امتياز.

وأتيح له بعد ذلك أن يدرس العقيدة الشرقية في دورة تكتيكية تعبوية في الأكاديمية العسكرية العليا بالاتحاد السوفيتي (أبريل ١٩٥٨ يناير ١٩٥٩) حيث حصل أيضًا على تقدير امتياز.

ثم درس في أكاديمية ناصر العسكرية العليا، كلية الحرب (مارس ١٩٦٥ ـ يوليو ١٩٦٦)، حيث يتمرس القادة على وضع المخططات الاستراتيجية لميادين قتال يشترط فيها أن يكون لها ما لجبهات المواجهة العربية الإسرائيلية من مميزات جيوبوليتيكية.

(١٠٢)

وسوف نحاول في هذا الفصل أن نلقي ومضات سريعة من الضوء على بعض ملامح الفكر الاستراتيجي لعبد المنعم رياض من خلال استقراء آرائه وفكره في عدد من كلماته وأقواله ومحاضراته التي تعرضت لبعض الموضوعات التي فرضت نفسها على الفكر العسكري في المرحلة التي كان هو فيه قائدا كبيرا صاحب تأثير على جيشه.

وسنناقش أولا ما عني به عبد المنعم رياض فيما يتعلق ببناء فكر ضباطه وجنوده، وربط عملهم بالدين والوطنية والتاريخ والمستقبل وما إلى هذا من العوامل الجوهرية في تكوين شخصية الجيوش.

ونبدأ **بالعامل الأول** من هذه العوامل **وهو دور العقيدة الدينية في الحرب**، فقد كان عبد المنعم رياض يؤمن بأهمية العقيدة الدينية في الحروب، وكان إيمانه هذا واضحا وصريحا حتى في حقبة الحديث الملح عن الإيمان بالقومية. وفيما بعد هزيمة ١٩٦٧ أتيحت لفكرة عبد المنعم رياض أن تلقى القبول والشيوع والذيوع، وكان عبد المنعم رياض يرى أن الوازع الديني عند المسلمين أقوى وأمتن أساسا من الوازع الديني عند الإسرائيليين، ولهذا فإنه كان من أنصار إحياء التراث الديني، وروح العقيدة، وتجديد شباب الدعوة الإسلامية على أسس عصرية مفتوحة، بعيدة عن التزمت والانغلاق.

ويذكر بعض معاصريه أن هذه الأفكار الدينية ازدهرت في تفكيره منذ أتيح له أن يزور إسبانيا سنة ١٩٥٥، حيث أطل عن قرب على آثار حضارة الإسلام في الأندلس، لكننا لا نستطيع أن نوافق هؤلاء على هذه الفكرة تماما، فقد كانت نشأة رياض من قبل هذا كفيلة له بأن يرتبط بالقيم الدينية ارتباطا عضويا، وأن يرى في البعد عنها تقليلا للفرصة في النجاح في أي ميدان من الميادين.

(١٠٣)

وربما كانت خلاصة ما أريد أن ألفت النظر إليه في هذه الجزئية أن رياض كان يعول على الإيمان بالله وباليوم الآخر وما فيه من ثواب ومن عقاب، وكان يرى في مثل هذا الإيمان دافعا إلى التجويد والأمانة والإخلاص، وهي عناصر أساسية في أداء الجندية.

فإذا ما أضيف إلى ذلك ما يتعلق بالهدف موضوع المعركة، أدركنا حقيقة ما كان رياض يؤمن به في هذا المجال، وهو ما انعكس على أداء القوات المسلحة والشئون المعنوية في الفترة التي تولى عبد المنعم رياض فيها رياسة الأركان.

قال عبد المنعم رياض:

«لابد أن ننمي في أنفسنا الإحساس بالواجب، أتعلم لو أن كل رجل وامرأة في مصر عرفوا واجبهم وحرصوا عليه بدوافع ذاتية، وبغير خوف من عقاب، أو طمع في ثواب، لن توجد قوة في هذا العال تستطيع أن تقهر مصر، المحنة سوف تصنع الوطن، سوف تنشئه نشأة جديدة».

(١٠٤)

ونأتي إلى **العامل الثاني** من هذه العوامل وهو **التعويل على طبيعة روح العداء والصراع وأثرها الانساني**، فقد كان عبد المنعم رياض في أحاديثه يركز على ضرورة التوعية بحقيقة الصراع الذي يخوض الجنود حربهم من أجل الانتصار فيه.

وفي هذا الصدد فإنه كان يلفت النظر إلى عنصر الإرادة المتعلق برفض الأمر الواقع الذي يفرضه القوي، وعدم قبوله، وكان يرى أن التعويل على مثل هذا العنصر كفيل بتحقيق مقدمات الانتصار.

□

وكان عبد المنعم رياض قد قال في محاضرة ألقاها في أبريل ١٩٦٧ قبل وقوع الحرب:

«الذين كانوا من وراء نشأة إسرائيل حسبوا كل شيء بدقة، إلا شيئًا واحدًا هو عدم رضاء العرب عن نشأتها».

وكان يقول:

«إذا أراد العرب أن يتعدوا مرحلة «عدم الرضاء» إلى مرحلة أصدق تعبيرًا عن أحاسيسهم، وأكثر تأمينا لأنفسهم ضد المخطط الصهيوني، فإن عليهم أن يعدوا لعمل عسكري مشترك تسهم فيه، على الأقل، الدول المحيطة بإسرائيل في إجماع لا يسمح لإسرائيل أن تتصور أن من حولها مناطق رخوة، أو مخدة ترقد عليها».

(١٠٥)

كان من رأى عبد المنعم رياض أن إسرائيل يجب أن تُواجه بمقاومة عسكرية وبمقاومة اقتصادية معا، وكان من أسانيده في هذا الرأي: أن سبب قيام دولة إسرائيل ليس سببا دينيا فحسب، وإنما يتضمن السبب من ناحية الغرب ما يتعلق بآليات وراثة السيطرة الغربية على الشرق العربي، وهو هدف ذو دافع اقتصادي بحت، ذلك أن الغرب كان يؤمن، بعد أن غزا العالم العربي عقب حرب العالمية الأولى، أن المنطقة صائرة حتما إلى صحوة.

والأمل إذًا أن تصبح إسرائيل عميلة للغرب في المنطقة التي يتقاسمون خيراتها، وأن يقبل العرب هذا الأمر الواقع.

وكان رياض يبني على هذا فيقول:

«إذا كان الغرض اقتصاديا، فالسلاح المواجه يجب أن يكون حربا اقتصادية، مع عدم إغفال أهمية الإعداد العسكري».

(١٠٦)

وننتقل إلى **العامل الثالث** من هذه العوامل: **الوعي باستراتيجية الخصم وهدفه من الحرب والوجود، وعلاقة هذا بمعتقداته وطموحاته وتاريخه**.

فقد كان عبد المنعم رياض يرى ضرورة أن يكون الجيش المحارب وكل جندي فيه واعيا لأهداف العدو واستراتيجيته على المدي الطويل، وكان يرى أن مسئولية القادة تتضمن تلقين جنودهم الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع. وقد كان هو نفسه ميالا إلى التركيز على شرح أهداف إسرائيل التوسعية، حتى إنه كان يرى أن أهدافها هذه تبدو منطقية في ظل سعيها لتحقيق استراتيجيتها، وقد قال بالحرف الواحد:

«إسرائيل في رأيي يجب أن تصل إلى أراضي السهول الخصبة على نهري دجلة والفرات، لتكون دولة متوازنة اقتصاديا، ويجب أن تسعى إلى التغيير بأكبر طاقة ممكنة، ولن تسكت إلا عند هذا الحد، أو هذه الوجبة الأساسية لها».

«يجب أن تصل إلى المناطق المزروعة والمروية عند دجلة والفرات ذات

الطاقة البشرية التي يمكنها استيعاب طاقة بشرية جديدة، وهذه هي الخطوة التوسعية التالية لها، وأقولها لكم اليوم ونحن في عام ١٩٦٨: إن هذا هو برنامجهم ما بين عامي ١٩٨٥ ـ ١٩٩٠، ولن يأتي عام ٢٠٠٠ إلا ويكون هذا التوسع قد حدث»

□

هكذا كان رياض يقول وكأنه كان يستشرف أهداف حروب الخليج التي شهدناها.

(١٠٧)

ومما يذكره التاريخ المعاصر أنه فيما قبل شهرين من وقوع هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ قال عبد المنعم رياض في محاضرة عسكرية:

- «لن تكتفي إسرائيل برقعتها الخالية».
- «إن الخطوة التالية عندها هي الاستيلاء على الضفة الغربية للأردن، وعلى جنوب لبنان، ولها تطلعات في الإقليمين السوري والمصري».
- «وقد تسعى إسرائيل للتفوق النووي حتى تتغلب على وحدة العرب، وحتى تعوض، عن طريق الرعب النووي، التفوق العربي الاقتصادي البشري».

هكذا كان رياض القائد واسع الأفق والإطلاع يلخص رؤية صائبة لم تلبث الأيام أن أثبتتها، وكان عبد المنعم رياض منذ ١٩٦٤ يصرح بل ويصرخ بأننا نواجه عدوا لا تقتصر أهدافه يومئذ على توصيل مياه النهر العربي إلى صحراء النقب في محاولة لزراعتها ولاستيعاب ثلاثة ملايين إسرائيلي جديد فيها، مع بناء مستعمرات جديدة، أو قلاع جديدة، على خطوط المواجهة مع العرب.

ويتصل بهذا العامل الذي ركز عليه رياض بدون مواربة، تنبيهه إلى «أهمية تقدير حجم وخطورة الدعم الغربي لإسرائيل»، فقد كان عبد المنعم رياض يردد في محاضراته مقولة إن معركة العرب ضد أطماع إسرائيل ليست مجرد عملية عسكرية بين العرب وبينها، بل يجب على قائد المعركة أن يدخل في الاعتبار مَنْ هم وراء إسرائيل.

(١٠٨)

أما **العامل الرابع** فيتصل بالعامل السابق اتصالا وثيقا ويعطيه أبعادًا تخرج بالأمور من إطار مواجهة جماعة عقيدية محدودة العدد إلى إطار مواجهة حضارة بأكملها في لحظة من لحظات صناعة مصائر الأمم.

فقد كان رياض مؤمنا بضرورة **اقتناع الشعب بقواته المسلحة**، وكان يرى أنه يستحيل أن ننتصر في المعركة القادمة إذا لم تنم العلاقة بين الطرفين.

وفي هذا الصدد يروي الأستاذ أحمد حمروش:

«وأذكر حديثا دار بيني وبين الفقيد الغالي في عيد الجيش الأحمر بالسفارة السوفيتية». كان يتحدث في حرارة عن الصلة الوطيدة التي بين الجيش والشعب، والثقة التي بدأت تنمو بينهما، ويؤكد إيمانه وحرصه على ضرورة وجود هذه العلاقة الحيوية».

«وشاءت الأقدار أن تكون جنازته هي الصورة التي تخيلها للقاء الشعب والجيش، الشعب الذي يعرف معني الوفاء للقادة المخلصين، والجيش الذي تلتهب معنوياته بشعور الجماهير».

(١٠٩)

وننتقل إلى **العامل الخامس** الذي يترجم العاملين السابقين إلى حقائق ومعطيات على أرض المعركة ويجعل القائد العربي مسئولا عن مواجهة حقيقية مع هذه المعطيات في تخطيطه ووضع تصوراته للمواجهة، ويمكن لنا أن نقول إن هذا العامل يتمثل في **حتمية التقدير السليم لكفاءة العدو وطبيعة قواته**.

كان من رأى عبد المنعم رياض، على ما قال في تقرير للموقف قبل عدوان ١٩٦٧ بأسابيع معدودة: إن أي تخطيط لمواجهة عسكرية ضد إسرائيل يجب أن يدخل في تقديره أن إسرائيل تعتمد على قوات برية قليلة نسبيا، تدعمها بنظام جيد لاستدعاء الاحتياطي عند الحاجة، مع غطاء جوي ممتاز، وشبكة مواصلات متقدمة، وأنها تعمل على أن تحتفظ لنفسها بالمبادرة في حرب انقضاض جوي مفاجئ، حرب أيام معدودة ترجو أن تحطم خلالها قوات الطرف الآخر.

وقد لقن رياض تلاميذه من القادة المصريين هذه الفكرة وظهر بالفعل أثرها في خطط عمليات القوات المسلحة في حرب ١٩٧٣ بوضوح حتى بدا وكأنها كانت قد أصبحت من المسلمات في الفكر العسكري المصري (والعربي) بعد ما كانت من المحرمات في ظل الحديث الشوفوني الذي كان مفضلًا على الدوام عند أقطاب النظام الناصري وحوارييه.

(١١٠)

وفي هذا الإطار كان رياض كثير التنبيه إلى **أهمية الاستطلاع المتميز لإمكانات العدو وأوضاعه القتالية**، ويمثل هذا **العامل سادس** العوامل التي نتحدث عنها في فكره الاستراتيجي.

وقد أثر عنه قوله:

«إن الرمال تتحرك يومًا بعد يوم، ومدقات الطرق تندثر وتتغير معالمها، ففي مسارح الصحراء كل شيء يتغير مع ومضات الزمن، وبفعل عوامل التعرية الدائمة النشاط».

....

....

ولعل أبلغ قصة تصور مدى هذا الخلق عند شهيدنا العظيم أنه **صحب بعض الدوريات المسلحة التي عبرت حدود العدو للاستكشاف**.

وأثر عنه أنه قال: «كنت أريد أن أرى الأرض التي ستجري عليها المعركة»!!

فضلا عن أنه يريد أن يزعزع هيبة العدو في نفوس جنوده.

(١١١)

ويتمثل **العامل السابع في الالتزام بالواقعية في تحديد الهدف القومي من المعركة وتحديد واجبات الدول العربية في هذا الإطار من تحديد الهدف وآلياته**.

كان عبد المنعم رياض يؤمن بأن دراسة الأهداف الحقيقية لإسرائيل دراسة جادة كفيلة بأن تمكن الجيش المصري وقائده من أن يتنبأ بالكثير من خططها العسكرية المقبلة، وحدود هذه الخطط ومن أن يضع خططا أكثر واقعية لمواجهتها.

وعلى الرغم من كل التحليق في الآفاق الاستراتيجية فقد كان عبد المنعم رياض رحمه الله يمتاز بالواقعية في تحديد هدفه، ومن المؤكد أنه لم يكن أبدا من هواة التحليق في الخيال، ولا المضي مع العواطف والآمال، وفي هذا الصدد أثر عنه قوله:

«لا يستخلص تقدير الموقف السليم إلا من الحقيقة، فكل أعمال الحرب.. شأن كل أعمال الحياة، تدور حول اكتشاف ما لا تعرفه من حقائق وما كشفت عنه الحقيقة هو نفس ما يحتويه الواقع».

(١١٢)

وانطلاقا من هذه الفكرة كان جوهر التخطيط الذي وضعه رياض واقترحه على المؤتمرات القمة العربية لاستراتيجية المعركة مع إسرائيل، وهو التخطيط الذي أقره مؤتمر القمة العربي الثاني في قراره الذي وصف الهدف العربي في المجال العربي بأنه ذو مرحلتين: هدف أولي عاجل: هو تعزيز الدفاع العربي على وجه يؤمن للدول التي تجري فيها روافد نهر الأردن حرية العمل العربي في الأراضي العربية، وهدف قومي نهائي هو تحرير فلسطين، ولكل من الهدفين أسلوب خاص بحشد الطاقات الميسرة وفقا لخطة تفصيلية.

ومن منطلق ما أسميناه الواقعية في تحديد الهدف كانت مساهمة عبد المنعم رياض في صياغة نظريتنا الاستراتيجية بعد حرب (١٩٦٧)، وهي الاستراتيجية التي فرقت بين معركتين لكل منهما هدفها وأسلوبها:

- معركة إزالة آثار العدوان.
- ومعركة إعادة الحق المغتصب إلى شعب فلسطين.

وحين كان على قادة إسرائيل أن يعلقوا على مغزي هذه الاستراتيجية الحكيمة فقد عبر قادتها عن ذلك بقولهم: إن هذا المخطط العربي يهدف اليوم إلى تصفية الوجود الصهيوني على مرحلتين، وقد لا يصدق البعض أن مثل هذا القول كان يصدر عن الغطرسة الصهيونية في أعقاب عام ١٩٦٧.

....

لكن الإنصاف يقتضينا أن نعترف بجدية الإسرائيليين في تعاملهم مع ما كانوا

يطالعونه من مبادئ هذه الاستراتيجية، التي كانت كفيلة بفتح أعين العدو على الحقيقة في الوقت الذي تجاهلها فيه معظم قادة العرب.

(١١٣)

وهنا ننتقل إلى واحد من العوامل التي صاغتها خبرة رياض بالواقع الذي عاشه بنفسه وأدرك تفصيلاته وهو **العامل الثامن**، وهو **الإيمان بضرورة التكامل العربي العميق**.

كان عبد المنعم رياض واعيا أيضًا لأهمية العمل المتصل من أجل دعم وتوظيف التكامل العربي في المجال العسكري والاستراتيجي على حد سواء، وفي محاضرة مرتجلة قال الشهيد:

«الزخم الاقتصادي لدى الصهيونية العالمية لا يمكن لدولة عربية بمفردها أن تقاومه.. استراتيجيا، فإن هذا التجمع العالمي للصهيونية يجب مواجهته بتجمع عربي مماثل، ولكن هذا التجمع العربي يتعطل لاختلاف العقائد التي تأثرت بها الدول العربية، بعضها عن الغرب، وبعضها عن الشرق، وهذا شيء طبيعي، فأنا أفضل الاشتراكية، وغيري يفضل الرأسمالية.

«ويجب أن نتعلم أمام المد الصهيوني الآتي: علينا أن نتعايش دون أن نتصارع، أنا أعادي الرأسمالية الأجنبية، ولا أعادي الرأسمالية العربية لأنها عربية، والعكس صحيح، ويجب أن نعترف بهذه الاختلافات، ونعترف أننا أمام خطر، يجب أن نتعايش ونتضامن رغم اختلاف الرأي والحياة».

«ولا يمكن أن نصلح أي خطأ إلا إذا اعترفنا بوجوده أولا، والتجمع العربي حقيقة ملزمة ليس لنا خيار مهما اختلفنا: عربي مسيحي وعربي مسلم الاثنان يحاربان في جيش واحد».

«وهكذا يجب أن يكون العربي الاشتراكي، والعربي الرأسمالي، والعربي الجمهوري، والعربي الملكي، يجب أن يتعايشوا كما يتعايش القبطي والمسلم عندما يحاربان في جيش واحد، وهذه حقيقة يجب أن نعيها لأنه لا توجد دولة عربية واحدة قادرة على الوقوف ضد التجمع اليهودي العالمي، ولذلك يجب أن يتضامن الجميع في وجه التجمع الصهيوني».

«ومن الصدف أن الدول العربية المحيطة بإسرائيل قليلة الموارد (لبنان سوريا الأردن مصر)، والثروات العربية الموجودة خلف النطاق المحيط بإسرائيل يجب أن تكون في معاونة دول النطاق الأول».

«وليست هذه المعاونة على سبيل المنة أو الزكاة، وذلك لأن إسرائيل إذا دخلت الأردن فإن العراق والسعودية والكويت لن تتمتع بمواردها».

(١١٤)

كان رياض يلفت النظر إلى حقيقة أن إسرائيل تستمد عناصر وجودها من العالم الصهيوني الخارجي، أي من طاقات مستوردة، للعدوان على الوجود العربي، والطبيعي أن نواجه ذلك بدعم طاقات الدول العربية المحيطة بإسرائيل، وأن تسهم الدول العربية الأخرى في ذلك، وأن تخصص من مواردها الاقتصادية ما يكفي لتمويل العمليات العسكرية اللازمة لمواجهة العدوان.

وكانت آمال رياض تصل إلى حد أن يكون المناخ السياسي ملائما لوضع «استراتيجية كلية» تستخدم فيها جميع الإمكانات العربية، عسكرية واقتصادية وسياسية وغيرها، لتحطيم إرادة العدو.

(١١٥)

وكان الشهيد عبد المنعم رياض في دفاعه عن دعواته المؤكدة لتنمية التكامل العربي الاستراتيجي يقول:

«إن الأمر غير مثبط للهمم، فالدول العربية أقدر على حشد قوات أضعاف القوات الإسرائيلية، وعليها أن تزيد كفاءتها القتالية، وتؤمن لها غطاء جويا كافيا».

وكان رياض يستطرد وهو يمسك بعصاه في وضع تمثيلي:

«لو أردت أن أكسر عمودا، لا أضغط عليه من طرفه الأعلى إلى الأسفل، أضرب في الوسط ضربة هي الأسهل لتحطيم العمود».

«ثم يشير إلى خريطة إسرائيل وإلى «خصر النحلة» الذي لا يتجاوز عمقه ١٧ كيلو مترا، هي الحزام في وسط إسرائيل».

(١١٦)

وربما كان من الإنصاف أن نذكر أن الزمن قد أكرم الشهيد رياض، بأن عاش حتى أصبحت القيادة الشرقية واقعًا قائمًا بالفعل، وليس مجرد مجموعة عمليات جوية من دول المواجهة الشرقية، أصبحت هذه القيادة واقعا موجودا ومؤثرا يتلاقى عنده عزم وعزيمة قوات العراق وسوريا والأردن، وقد كان رياض يؤكد على نظريته في أنها جبهة ذات أهمية استراتيجية لا تعوض، فضلا عن أن الوصول بها إلى حد التأهب المرجو سوف يعطي لقوى أخيرة من قوى النضال العربي نوعا من الحماية المباشرة، والمساندة السريعة.

وقد ضمّن رياض هذا المعنى في صياغة خطاب الرئيس عبد الناصر في افتتاح مجلس الأمة في ٢٠ يناير ١٩٦٩ (أي قبل استشهاد رياض بأقل من خمسين يوما).

وهكذا تمكن رياض من أن يضع أفكاره على لسان الرئيس عبد الناصر نفسه على هذا النحو الصريح المباشر.

(١١٧)

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن هذا الجهد الذي بذل رياض من أجله عصارة فكره ووقته قد حقق نجاحه في حرب أكتوبر ١٩٧٣، لكن العرب لا يزالون يظلمون أنفسهم، فقد كانت خبرات هذه الجبهة هي الأسلوب الناجح الذي مكّن لدخول قوات العراق المعركة ولتأهب قوات الأردن لهذا الدخول، على الرغم من سياج السرية الذي فرض على الاستعدادات قبل نشوب العمليات الحربية في ٦ أكتوبر.

ومن الإنصاف أيضًا أن نقول إن حجم المشاركة العراقية كان مبشرا ومستحقًا للفخر وباعثًا على الأمل.. لكن الخلافات اللاحقة التي نشبت بعد الحرب ضيعت على العرب ما اعتادوا تضييعه من الاعتزاز والفخر بالإنجاز.

ومما يذكر أن رياض كان في بغداد، قبل استشهاده بيومين، حيث حضر اجتماعا لرؤساء أركان حرب جيوش الجبهة الشرقية.

(١١٨)

وننتقل بعد هذه العوامل الثمانية إلى مجموعة أخرى من العناصر التي كونت

رؤية رياض الاستراتيجية في المواجهة العسكرية من خلال أدبيات وفكر عبد المنعم رياض السياسي، الذي ننقله عن تصريحاته وخطبه وروايات المحيطين به، ونبدأ بأولها وهو **العامل التاسع** المتعلق والمرتبط بتخصصه، وهو **أهمية الدفاع الجوي**.

كان عبد المنعم رياض، منذ تولى رئاسة أركان القيادة العربية الموحدة، يحذر من أن إسرائيل تعتمد أساسا على إمكانات قوة دفاع جوي جيدة، وأنها تحت ستار المظلة الجوية تحتفظ بجيش بري قليل العدد نسبيا مع نظام جيد لاستدعاء الاحتياطي تستطيع معه أن تحشد عددا مناسبا يعمل في حماية المظلة الجوية الممتازة.

وبدقة الخبير العسكري كان رياض يقول: إن أهم ما يجب أن تواجه به إسرائيل هو عمل يشل نظامها الدفاعي الجوي، مع ضرب مراكز حشد الاحتياطي، ومع التداخل الإلكتروني.

ويمكن القول أنه لولا أن هذه الفكرة أصبحت من الثوابت عند مخططي حرب أكتوبر ١٩٧٣ ما أمكن للنصر في هذه الحرب أن يتحقق. فقد كان الاهتمام بالقوة الرابعة والتعويل عليها من أهم العناصر المبكرة في انتصار أكتوبر ١٩٧٣.

(١١٩)

ومع أن للدفاع الجوي آليات متعددة تشمل الاشتباك بالطائرات وتوجيه الصواريخ والمدفعية، فإن رياض كان واعيًا بعمق لدور كل آلية في الوقت المناسب.

وفي هذا الإطار فقد ظل الشهيد عبد المنعم رياض ينبه إلى أهمية المدفعية المضادة للطائرات، وكان يقول: «إن المدفعية لم تفقد فعاليتها رغم ظهور الصواريخ».

ومن مفارقات القدر أن المدفعية نفسها ضربت مثلا عمليا على صدق عبد المنعم رياض حين أصابته شظاياها فأصبح شهيدا في لحظة خاطفة، وصدق فيها قول المثل «آمن بها فقتلته».

□

وقد أثبتت معارك حرب أكتوبر ومن قبلها حرب الاستنزاف مدى ما لا يزال ممكنًا للمدفعية أن تحققه في أية مواجهة عسكرية.

(١٢٠)

وقد كان من الطبيعي أن يكون لرياض رأي مبكر ومعلن بوضوح (ومختلف عما هو شائع) في دور الأسلحة المختلفة في صياغة عناصر الاستراتيجية الحربية العربية.

وهنا نأتي إلى **العامل العاشر** المتعلق **بأهمية ضربة الطيران السريعة وإيمانه العميق بها.**

كان عبد المنعم رياض يؤمن بالأهمية القصوى للطيران، وكان يقول للذين يحدثهم: «إذا أرادت إسرائيل أن تضرب فبالطيران قبل غيره، وإذا أردنا ضربها فبالطيران، وحرب الطيران هي حرب السرعة الخاطفة، حرب الأيام المعدودة على أصابع اليد الواحدة وبعدها النصر أو الهزيمة».

وكأنما كان رياض يستشرف في هذا ما استطاعت قواتنا المسلحة أن تحققه في حرب الساعات الست في أكتوبر سنة ثلاث وسبعين (١٩٧٣) بفضل سلاح طيران قوي جيد التدريب.

(١٢١)

وفي أثناء معركة الأردن في يونيو ١٩٦٧ كان رياض، وهو في مركز المسئولية بالقيادة المتقدمة بالأردن، يتمنى (بمرارة وأسف) لو أن القيادة الجوية المرجوة والتي كان قد اقترحها كانت قد شكلت فعلا.

وكان رياض يكرر أنه: «لا معركة بدون دفاع جوي، ودعم جوي كاف».

وصدق رياض، وقد كتب هو نفسه بعد ذلك عن معركة الأردن في يونيو ١٩٦٧: «لو أمّن للوحدات الأردنية أقل قدر من الغطاء الجوي لأخذت المعركة شكلا آخر».

(١٢٢)

وننتقل إلى مجموعة ثالثة من العوامل الاستراتيجية المرتبطة برؤية رياض لدور الإنسان (ولا نقول الفرد) في صياغة انتصارات الحروب وملامحها، وقد ركز رياض في هذا الصدد على عدد من الأمور التقليدية مع مقاربة عصرية لها.

فقد كان كثير العناية بالتعويل على **الدور الذي تلعبه الروح المعنوية**، وهو **العامل**

الحادي عشر، فقد كانت روحنا المعنوية قد تأثرت في ذلك الوقت إلى أقصى حد بسبب الدعاية الزاعقة والزائفة للجندي الإسرائيلي، وهي دعاية كان يشارك فيها العرب أنفسهم (بطريقة غير مباشرة) في ظل ما خبروه وما عانوه من الانسحاب الذي أعقب هزيمة ١٩٦٧.

كان عبد المنعم رياض من الذين أدركوا مبكرا أهمية بث الثقة في نفوس المقاتلين العرب، وأهمية وضع الجندي الإسرائيلي في مكانه الصحيح بعيدا عن حالات التفوق التي صُور بها، وفي مواجهة مبالغات متكررة عن كفاءة الجندي الإسرائيلي كان عبد المنعم رياض يقول:

«القوات الإسرائيلية برواز ساطع ولامع، لكنك بمجرد أن تخترق البرواز لا تجد بداخله تفاصيل صورة حقيقية، فليس داخل البرواز اللامع شيء غير الفراغ!».

وكان عبد المنعم رياض يقول أيضًا:

«لابد أن نعرف عدونا وندرسه دراسة علمية، بكل نقط الضعف فيه ونقط القوة، والمتغيرات في العدو كثيرة: في التكتيك.. في التسليح.. في المواقف والخطط، وعلينا أن نلم بكل هذه المتغيرات أولا بأول.. ولهذا يلزمنا دائما سيل متصل من المعلومات والتحليلات الذكية الوافية عن العدو!».

(١٢٣)

وفي محاضرة عامة لجنوده ضرب عبد المنعم رياض مثلًا حيًا للتفاعل الإيجابي مع ما كان يفتعل في نفوس جنوده من رغبة في الانتصار على الجندي الإسرائيلي الذي لم يجابهوه فقال:

«كان نفسكم تحاربوهم، لكنكم لم تأخذوا هذه الفرصة بعد، ستعبرون، وستواجهونهم، وستطاردونهم وهم يفرون أمامكم، مثلما رأيتموهم بعيونكم أثناء معارك المدفعية (سبتمبر ١٩٦٨) وهم يقفزون من دباباتهم المشتعلة ويفرون كالجرذان إلى عمق سيناء! هذا هو المقاتل الإسرائيلي بحقيقته عارية!».

وكان عبد المنعم رياض يقدم تشبيها جميلا فيقول: «... دول قشرة موز دفعتها الأقدار في طريقنا: تعثرنا، انكسرنا، لكن الكسر جبر!».

(١٢٤)

ويتمثل **العامل الثاني عشر** من العوامل المكونة لفكر عبد المنعم رياض في **إيمانه بضرورة رفع مستوى القوي البشرية**، وهو عامل لم ينتبه إليه غيره من القادة بالقدر نفسه، ومن الحق أن نقول أن إنجازاته في هذا الميدان تمثل طفرة.

كان الشهيد عبد المنعم رياض يؤمن بأن رفعة مستوى الأفراد وقدراتهم التكتيكية أمر لا يمكن التفريط فيه، وقد ذكرنا دوره في استصدار قرار بتجنيد المؤهلات العليا والاعتماد عليهم تماما. وقد كان هذا الاتجاه في رأيي، وكما كررت كثيرًا، من أهم الأسباب البارزة في تحقيق نصر أكتوبر ١٩٧٣.

(١٢٥)

مضى عبد المنعم رياض خطوات واسعة في فكرة تجنيد حملة المؤهلات العليا، إيمانا منه بالمستوى الذي لا بد أن يكون عليه الجنود الذين سيحاربون بأحدث ما وصل إليه العلم من تكنولوجيا لا بد أن تكون لهم القدرة على استيعابها.

وقد أثبتت معارك الاستنزاف ثم حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ بعد نظر شهيدنا العظيم صاحب الأفكار الثاقبة.

(١٢٦)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن عبد المنعم رياض كان معارضا على الدوام وناقدا لفكرة التجنيد بواسطة القرعة، وقد أثر عنه أنه قال إن هذه القرعة تصلح لأوراق اليانصيب، لكنها لا تصلح بالمرة كوسيلة علمية للتجنيد.

كما أنه هو الذي جاهر بأن الجندي المتعلم يستخدم سلاحه استخداما فنيا صحيحا، ويكون قادر على صيانته والتوحد معه، وكان يقول إن الجندي المؤهل لا يستغرق تدريبه أكثر من ربع المدة اللازمة لتدريب غير المتعلمين.

وكان رياض يكرر القول بأن الاعتماد على المؤهلين يمثل أهم عنصر في خدمة الاستراتيجية المصرية في تكوين جيش قوي عالي الكفاءة في أقل وقت ممكن.

وقد روى رياض أنه قرأ مرة في أعقاب الهزيمة مباشرة مقالا في مجلة «تايم»

الأمريكية يتحدث في فخر وصلف عن أن العسكرية الإسرائيلية تباهي بأن نسبة قتلاها في الحرب بين الضباط والجنود تجاوزت بكثير النسبة العالمية، فالنسبة العالمية ضابط قتيل لكل ٣٠٠ جندي، وإسرائيل تدعي أن نسبة قتلاها في حرب يونيو ١٩٦٧ جاءت ضابطا واحدًا لكل ١٥ جنديا (بما يعني أن الضباط كانوا في الصفوف الأمامية).

وفي مؤتمر عسكري عقد يوم ٢٦ يونيو ١٩٦٧ قال الفريق عبد المنعم رياض ما نصه: «إن شاء الله الحرب القادمة سوف تكون نسبتنا ١: ١٠ على الأقل، وعلينا في تخطيطنا لتنمية روح القتال بين القوات أن نضع ذلك هدفا، ولو أني لا أثق لحظة في أن إسرائيل قد أعلنت النسبة الصحيحة».

(١٢٧)

على هذا النحو كان رياض، ورياض وحده بين أقرانه، يتعامل بلغة الأرقام والمعدلات في زمن كان لا يزال يعتمد ويعول على انتصار الإرادة ببقاء الزعيم، وما إلى ذلك من الترهات التي كانت كفيلة تكرار ورود الأمة موارد التهلكة مرة بعد أخرى.

ومن الحق هنا أن نستطرد فنقول إن قواتنا المسلحة بعد هزيمة ١٩٦٧ استطاعت أن تقف على قدميها معبرة عن أصالة معدن الشعب المصري وقدرته على الصمود.

وقد أتاح الله لعبد المنعم رياض أن يرى بعينيه قبل استشهاده أربعة أمثلة حية لبطولة الجندي المصري وجسارته، فلم يلق ربه إلا وقد قرت عينيه بتباشير النصر والتفوق العسكري المصري.

(١٢٨)

وننتقل إلى مجموعة العوامل التي يفضل غيرنا أن يبدأ بها وهي العوامل المرتبطة بالقيادة.

ويتمثل **العامل الثالث عشر** في عقيدة رياض في أن **القادة يُصنعون ولكنهم لا ينفردون بصنع القرار**.

كان عبد المنعم رياض لا يفتأ يعبر عن رأيه الأصيل في أن القادة لا يولدون، ولكنهم يُصنعون، يصنعهم العلم، والتجربة، والفرصة، والثقة.

ولعل هذا كان هو الأصل في رأيه الذي أبداه عن حرب ١٩٦٧ حين قال:

«إنه كان لدينا جيش، ولكن لم تكن لدينا قيادة على الإطلاق، وماذا يفعل أي جيش إذا فقد رأسه؟ لقد كان الذين يتولون مقاليد الأمور في قيادتنا يختارون الضباط الذين يدينون لهم بالتبعية، بصرف النظر عن الكفاءة».

وكان رياض مع هذا من أشد المؤمنين بضرورة إشراك رجال الصفوف الثانية والثالثة في القرار، وهو خلق عسكري رفيع لا يتأتى لكل القادة أن يخرجوا به إلى حيز التنفيذ، ولكن مقدرة عبد المنعم رياض على الإقناع وقابليته للاقتناع وتغلغل أخلاق العلماء فيه، وتقديره للحق وللحقيقة، كل أولئك ساعده على أن يتخلق بهذا الخلق الرفيع.

وحين أدخلت الصواريخ المضادة للطائرات إلى مصر لأول مرة اقترح الفريق محمد علي فهمي، وكان يومها رئيسًا للجنة المختصة أن تتم دراسة هذه الصواريخ على مستوى القادة أولا، ولكن رياض عدّل هذه الفكرة وأصر على دراسة الصواريخ من البداية دراسة كاملة على أصغر المستويات.

(١٢٩)

ويتمثل **العامل الرابع عشر** في إيمان عبد المنعم **بضرورة تجديد دماء القادة في جميع المستويات العليا**.

وحين عين هو نفسه رئيسًا للأركان في يونيو (١٩٦٧)، اقترح على الرئيس جمال عبد الناصر أن تكون فترة شغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية محددة بأربع سنوات، عملا على تجديد وإحلال القيادات الشابة والخبرات الحديثة في مواقع المسئولة أولا بأول.

وقد اقتنع الرئيس عبد الناصر بوجهة نظر شهيدنا فأصدر قرارا جمهوريا يحدد فترة تولي منصب رئيس الأركان بأربع سنوات قابلة للتجديد سنة أخرى بقرار جمهوري.

ولكن عبد المنعم رياض لم يكمل في رئاسة الأركان إلا أقل من سنتين.

(١٣٠)

أما **العامل الخامس عشر** فكان **حرصه على تحقيق أعلى درجات التوافق بين المركزية واللامركزية في القيادة المصرية والعربية على حد سواء.**

من الجدير بالذكر أن هذه الدعوة إلى مركزية التخطيط والقيادة لم تكن دافعا لشهيدنا إلى تركيز القيادة في يده في أي وقت من الأوقات، فقد كان رياض من أول الداعين إلى اللامركزية في القيادة، وأن يترك لكل مرءوس من مساعديه مجالًا كافيا لحرية التصرف وقد أثر عنه في هذا الصدد قوله:

«إن الحمل الثقيل قد يسحق أكتاف رجل واحد.. بينما يسهل على الجماعة المتكاتفة النهوض به».

وقد كان إيمانه بهذه الفكرة مسيطرًا عليه في قرارته مع إيمانه المعروف بمسئوليته القصوى عن الكيان العسكري كله.

وقد نجح رياض في هذا التوافق وفي تحقيقه وفي الحفاظ عليه وهو ما لابد من الإشارة إليه مع تأكيدنا على توافق المركزية واللامركزية في عقلية الرجل الاستراتيجية.

(١٣١)

وعلى سبيل المثال فإنه بالإضافة إلى اقتراح عبد المنعم رياض إنشاء مجموعات عمل جوية «تتولي قيادة القوات للأقطار العربية الثلاثة سوريا والعراق والأردن»، فقد طالب في تلك الأيام بحكم اطلاعه على بواطن الأمور، واستشرافه للمستقبل بالإسراع في شراء المقاتلات للأردن، وألح في وضع خطة تدريب للطيارين والفنيين للعمل على هذه المقاتلات.

كما طلب التصريح للقوات العراقية والسورية التي تمركزت في أرضها قبل يونيو ١٩٦٧ بدخول أرض المعركة.

ولعل عبد المنعم رياض حين كان يقترح مثل هذه الاقتراحات كان يؤمل ألا ترى مصر يومًا من الأيام التي شهدها العالم العربي في يونيو ١٩٦٧، لكن الله سبحانه وتعالى لحكمة يعلمها أراد للأمة العربية تلك المحنة.

وليس هناك أدني شك في أن عبد المنعم رياض قد بذل جهدا كبيرا في لفت النظر إلى خطورة الموقف العسكري قبل هزيمة يونيو، وقد سرد محمد حسنين هيكل في مقاله الذي رثا به عبد المنعم رياض كثيرًا من المواقف التي نبهه فيها شهيدنا إلى خطورة الموقف ودقته حين لم يكن غيره ينبه، ولا يجرؤ على التنبيه، ولا يفكر فيه!

(١٣٢)

أما **العامل السادس عشر** فكان هو **تعويله على ضرورة تميز القادة ومن يختار لها، وإيمانه بأن القائد بالقدرة لا بالسلطة.**

كان عبد المنعم رياض يرى أن القائد هو الذي يملك إصدار القرار وليس الذي يملك مجرد سلطة إصدار القرار، وكان يرى أن أهم عامل في نجاح القائد هو المقدرة على إصدار القرار في التوقيت السليم، وكان يضرب لذلك مثلًا بمعركة ١٩٦٧ فيقول:

> «إن الدراسة العملية لتصرفاتنا في المعركة قي بينت لنا أن قرارات الكثيرين من قادتنا كانت سليمة، ولكنهم ترددوا فلم يصدروا القرار في الوقت المناسب، ولا فائدة من قرار مهما كان سليما إذا جاء بعد الوقت المناسب بخمس دقائق، لأن الوقت الذي يواجهه قد تغير، فالمعركة لا تنتظر أحدا».

□

وكان رياض يذهب إلى أبعد من هذا فيقرر أن قرارا سليما بنسبة ستين في المائة يتخذ في الوقت المناسب خير من قرار سليم مائة في المائة يجيء بعد الوقت المناسب بخمس دقائق ليصبح بغير فائدة على الإطلاق!

(١٣٣)

أما **العامل السابع عشر** فكان **إيمانه بضرورة أن تمتلك قواتنا وقراراتنا مزية الاندفاع الكافي إلى أهدافها، وأن نمارس هذا الاندفاع بالفعل.**

كان رياض يؤمن بأن القائد لا بد أن يكون مندفعا بالحد الكافي إلى الأمام بحيث يمكنه أن يشم رائحة المعركة، لهذا السبب وبهذا الإيمان فإن عبد المنعم رياض لم يتولَ قيادة معركته الأخيرة من موقع محصن، رغم أن هذا حقه، ولكنه قادها من الموقع المتقدم، ولم يحسب رياض حساب أنه قد يستشهد.

(١٣٤)

ونأتي أخيرًا إلى **العامل الثامن عشر** وهو **إيمانه العميق بالبناء على تكامل عناصر القوات المسلحة.**

كان عبد المنعم رياض يؤمن بالأهمية القصوى لاندماج مختلف عناصر القوات المسلحة بعضها ببعض، وكان يعتبر أن أقل جزء في جهاز الحرب يمثل أهمية تعادل في نظره الأهمية التي يمثلها أكبر أجزاء هذا الجهاز، فلكل واجبه الذي يكمل القيادة.

وكان على سبيل المثال على اقتناع شديد بأهمية الشئون الإدارية، وقد أثر عنه في القوات المسلحة قوله الذي كان يقرره دائمًا من أنه:

> «رغم وجود الطائرات الميج والصاروخ الموجه بل والسلاح الذري، فما زال طباخ الكتيبة يحتفظ بذات القدر من الأهمية وسيظل محتفظا بأهميته».

وفي لقاء له مع مجموعة جديدة من الأطباء العسكريين، قال عبد المنعم رياض:

> «على عاتق الجندي تقوم الحرب، ولذلك فإن مكانك كطبيب هو دائمًا بجانب هذا الجندي.. في موقع الدفاع أو عند الهجوم.. إن عملك الوحيد هو صحة هذا الجندي وسلامته».

الباب الثالث

على القمة

الفصل السادس

الأردن

(١٣٥)

منذ ربيع عام سبع وستين (١٩٦٧) ظهرت في الأفق بوضوح نذر الحرب القادمة بين العرب وإسرائيل، وأخذت الأمور تتطور بأسرع مما يتصور، وكان شهيدنا لا يزال رئيسًا لأركان حرب القيادة العربية الموحدة، وفي الأسبوع الأخير من مايو (١٩٦٧) أصبح من المؤكد نشوب القتال على الجبهة المصرية، وعندئذ طلب عبد المنعم رياض أن يعفى من انتدابه في القيادة الموحدة، وأن يعود إلى جيشه ليخدم في أي موقع من مواقع الدفاع عن مصر.

وفي ذلك الوقت، ومن ناحية أخرى فقد كان الملك حسين قد قام بزيارة مفاجئة للقاهرة أعلن فيها انضمامه قلبا وقالبا إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وإلى التيار القومي العروبي، وأعلن عن استعداده للمشاركة في خوض المعركة القادمة مع إسرائيل، وأعلنت مصر والأردن عن انضمام الملك حسين والمملكة الأردنية الهاشمية إلى الاتفاقية الموقعة بين مصر وسوريا، وعن اعتزامه المشاركة في كل الخطوات العربية القادمة.

واتفق الرئيس عبد الناصر مع الملك حسين على أن يكون عبد المنعم رياض قائدًا لجبهة الأردن.

وكان طبيعيا أن تتم هذه الموافقة السريعة على اختيار عبد المنعم رياض لقيادة جبهة الأردن، وصدر الأمر له بالتوجه من فوره إلى الأردن ليتولى مهام منصبه في آخر يوم من مايو سنة سبع وستين (١٩٦٧).

(١٣٦)

وقد قضى عبد المنعم رياض عشرين يومًا فقط في الأردن، خمسة أيام قبل الحرب، ثم أيام الحرب، ثم بقي بعد انتهاء الحرب حتى يوم ٢٠ يونيو حين عاد إلى مصر ليتولى منصبه الجديد (رئيسًا للأركان) الذي كان عين فيه منذ ١١ يونيو.

ورغم قصر هذه الفترة التي قضاها رياض في الأردن فقد ظلت جماهير الشعب العربي في الأردن وفلسطين وجنود الجيش يذكرون أن رياض بطلهم وقائدهم، وقد ظلوا زمنا طويلا يحتفظون له بصورته في مداخل بيوتهم، حتى استشهد فزاد تعلقهم به، وتقديرهم لسجاياه، وفخرهم بالعمل يومًا من الأيام تحت قيادته.

وقد كانت صلاحيات عبد المنعم رياض بالإضافة إلى قيادته المباشرة لجبهة الأردن تشمل قيادة القوات العراقية والسعودية والسورية، كما كان من المفترض أن يتولى قيادة كتيبتين من رجال الكومندوز المصريين المفترض إرسالهم إلى الأردن بموجب اتفاق الملك حسين مع الرئيس جمال عبد الناصر.

(١٣٧)

وصل رياض إلى الجبهة الأردنية فاجتمع في البداية بالملك حسين، ثم ذهب إلى قواته فاستعرضها، وإلى خطوطه فنظمها، ولم يمهله القدر أكثر من ذلك، إذ سرعان ما اندلع لهيب الحرب، وأصبح شهيدنا في موضع لا يحسد عليه، فالقوات الإسرائيلية تواجهه من كل جانب، والطائرات تهاجمه.

وقاد شهيدنا أكثر من معركة من معارك الصمود كان هدفه فيها تقليل الخسائر إن لم يستطع رد هجوم عدوه، وصمد عبد المنعم رياض في ضوء الإمكانات المتاحة حتى استطاع أن يجنب جيوشه التي قادها مذابح كانت واقعة بلا ريب.

(١٣٨)

قام الفريق رياض يوم وصوله إلى جبهة الأردن بجولة بطائرة مروحية على مواقع هذه القوات، وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لرؤية أوضاعها على الطبيعة.

وقد روى عبد المنعم رياض نفسه أنه بعد أن وصل إلى عمان فوجئ بأشياء كثيرة،

وكان أول ما فوجئ به هو طريقة توزيع القوات الأردنية على الجبهة الأردنية مع إسرائيل، فقد كانت خطوط خط المواجهة تبلغ ٦٥٠ كيلو مترا، بينما لم يكن حجم القوات الأردنية يزيد على ١١ لواء، وهي قوة لا يستهان بها، لكن ما أدهشه هو أن هذه القوات كانت موزعة على الخطوط على شكل سرايا مبعثرة دون أن تتجمع لتكون منها قوة ضاربة حقيقية.

وقد عاد رياض من هذه الرحلة الاستطلاعية قلقا إلى أبعد حد، فبعثرة القوات بهذه الطريقة يجعلها لا تصلح لدفاع ولا لهجوم، وكان يرى ضرورة تجميعها كقوة ضاربة مؤثرة.

(١٣٩)

وفي يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ قام الفريق رياض بتغيير مواقع المدفعية الأردنية، وقد تمكن بهذه الخطوة من أن يحقق انتصارا مبكرا، وهو انتصار حقيقي سرعان ما أجهض بعد ذلك.

وتفسير ذلك أنه عندما بدأت المعارك صباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧، انطلقت قذائف المدفعية الأردنية لتصيب أهم المواقع الإسرائيلية الحساسة في القدس الجديدة، وكان من هذه المواقع مبنى الكنيست، ومبنى الهستدروت (مبنى اتحاد العمال)، والجامعة العبرية، والسوق المركزية بالمدينة، وجراج المدينة الرئيسي، ومحطة الكهرباء، وبيت رئيس الأركان الصهيوني زلمان شازار الذي لم يسلم من الإصابة، وكان القذف المدفعي مريعا للدرجة التي دفعت بعض سكان المدينة خلال الساعات الأولى من المعركة للخروج إلى شرفات المنازل ملوحين بالأعلام البيضاء طلبا للاستسلام.

(١٤٠)

وقد كتب موشي دايان نفسه مذكراته معترفا بنجاح رياض في هذه الخطوة المبكرة:

> «إن ما فعله الجنرال المصري عبد المنعم رياض خلال ساعات قليلة من اختيار مواقع مدفعية الميدان الأردنية كان طبقا لخطة محكمة بشكل مذهل، ومخادعة جدًّا، فقد كانت تطال كل شبر في القدس الجديدة، وهي محمية على الدوام في مواقع ذكية يصعب تدميرها».

(١٤١)

ثم كان الانتصار المرحلي الثاني الذي حققه عبد المنعم رياض في حوالي الساعة العاشرة والنصف من صباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧، وخلال ساعة واحدة من بداية الهجوم، سيطر أبطال الأردن على جبل المكبر، وهو موقع استراتيجي كفيل بالسيطرة تماما على ما حوله.

وفي حوالي الواحدة والنصف من بعد ظهر اليوم نفسه بدأت القوات الإسرائيلية هجومها الأول لاسترداد جبل المكبر مستخدمة الطيران والمدفعية والمدرعات والعديد من كتائب المشاة، لكن الهجوم دحر، وتكبد الإسرائيليون خسائر فادحة في الأرواح والمعدات.

ومع أول ضوء في صباح اليوم التالي ٦ يونيو ١٩٦٧ انهالت الصواريخ وقذائف المدفعية على الجبل بهدف تدمير الكتيبة الأردنية التي كانت مسيطرة عليه تماما، كما شنت الطائرات الإسرائيلية العديد من الهجمات بالغة العنف عليه، ومرة ثانية فشل الهجوم، وتزايدت الخسائر الإسرائيلية بشكل كبير جدًّا.

استمر الصمود الأسطوري لمغاوير الأردن بقيادة عبد المنعم رياض يصد الهجوم تلو الآخر حتى كان الهجوم الكاسح ظهر ثالث أيام الحرب، أي يوم الأربعاء ٧ يونيو ١٩٦٧، وقد وفرت إسرائيل هذا الهجوم قوات تفوق في عددها وعتادها ما لا قبل للقوات الأردنية به، وعلى الرغم من هذا فإنه في هذا الهجوم تكبد الصهاينة أكثر من سبعين قتيلا، ومائة وعشرة جرحي.

وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر ٧ يونيو ١٩٦٧ دق الإسرائيليون أبواب القدس القديمة، واحتل الصهاينة المدينة بعد مقاومة باسلة، وبعد سلسلة وحشية من الغارات الجوية، وقتال شرس بالسلاح الأبيض من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت.

(١٤٢)

في صعيد ثان فإن عبد المنعم رياض أعطى أوامره، باعتباره رئيسًا للقيادة العربية الموحدة، بالإغارة على المطارات الإسرائيلية وتدميرها، ومن ثم فقد قامت الطائرات الأردنية بمهاجمة مطار «ناتانيا»، ودمرت كل الطائرات الإسرائيلية التي كانت على ممراته، وهاجمت طائرات «الهوكر هنتر» العربية مطار ناتانيا الإسرائيلي ثلاث مرات

متتالية وعادة سالمة، وأعلن طيارونا أنهم دمروا أربع طائرات معادية وهي جاثمة على الأرض، وهي الطائرات الوحيدة التي شاهدوها.

ومن الجدير بالذكر أنه لم تصب طائرة أردنية واحدة في هذا الهجوم، بينما قام الطيران العراقي بقصف مطار «اللد»، وقام الطيران السوري بتدمير مطار «رامات دافيد »ومصفاة «حيفا» للبترول.

(١٤٣)

وفي صعيد ثالث كان رياض قد بدأ محاولات ذكية لتوظيف المدفعية العربية (!!) في الهجوم على إسرائيل وعلى قواعدها الجوية ومحطات الرادار، ففي الخامسة من عصر الخامس من يونيو ١٩٦٧ أصدر رياض أوامره إلى قائد القطاع الغربي من الجبهة بقصف قواعد إسرائيل الجوية بالمدفعية طويلة المدى، وقد نجحت هذه المدفعية في إحداث إصابات مباشرة في العديد من القواعد الجوية الإسرائيلية، كان منها «ماجيد»، و«العين ،» و«كفور سركين»، و«شامور»، و«كبول»، علاوة على تدمير محطة الرادار الإسرائيلية في «القسطل».

كانت المدفعية الأردنية تنهش الطوابير الإسرائيلية المندفعة نهشا، وتكبدها أكبر خسائر ممكنة! ثم سقطت نابلس بعد ١٨ ساعة من القصف الجوي والمدفعي المتواصل، وبعدها جاء دور أريحا والخليل، وأعطى الفريق رياض آخر أمر للقوات الأردنية الباقية بالانسحاب إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، واتخاذ مواقع دفاعية جديدة، بعدما سقطت الضفة الغربية منذ ذلك الحين في يد الصهاينة !

(١٤٤)

بعد أن تعرضت المطارات الأردنية للتدمير بدأت خطة عبد المنعم رياض تركز على حماية ما تبقى من طائرات سلاح الجو الأردني.

ومن الجدير بالذكر أن ما تبقي كان هو أهم شيء، وهو الثروة البشرية، فعلى الرغم من تدمير معظم الطائرات الأردنية لم يستشهد من الطيارين الأردنيين سوى طيار واحد، استشهد قائد السرب العجلوني في مطار المفرق، وهو يقلع بطائرته ليواجه (وحده) موجات الميراج الإسرائيلية التي تهاجم المطار.

(١٤٥)

وقد أصدر الفريق رياض تعليماته بنقل الطيارين الأردنيين إلى قاعدة جوية عراقية موجودة على الحدود بين البلدين، وانتقل الطيارون في سيارة عسكرية سريعة إلى القاعدة الجوية العراقية «هـ ٣٠» على الحدود العراقية الأردنية، وفور وصولهم وضعت القوات الجوية العراقية تحت تصرفهم طائرات بعددهم، وكانت هذه الطائرات من طراز «هوكر هنتر»، وهو نفس نوع الطائرات التي تدربوا عليها.

وواصل الطيارون الأردنيون عملهم وفي هجوم جوي واحد تمكنوا فيه من إسقاط ٦ طائرات إسرائيلية من طراز «ميراج»، وطائرتين من طراز «ميستير»، وطائرة واحدة من طراز «فوتور».

ويذكر أن القوات العراقية والفلسطينية لم تحتل المواقع التي عينها لها الفريق عبد المنعم رياض، فمنذ اللحظة الأولى لنشوب الحرب كان الطيران الإسرائيلي قد تعرض لها وهي في طريقها إلى مواقعها وتمكن من إبادتها.

(١٤٦)

ها هي الأيام الستة تنتهي ويتضح للناس جميعا أن الدول العربية قد خسرت هذه الجولة، ويقف الرئيس عبد الناصر يعلن تنحيه في ٩ يونيو، وتتقدم قيادات الجيش جميعا باستقالاتها حتى يمكن للرئيس أن يعيد تشكيل القيادة بما يمكنه من إزالة آثار العدوان وكسب الجولة القادمة.

وسرعان ما اختير عبد المنعم رئيسًا لأركان القوات المسلحة المصرية وهو لا يزال يعمل في جبهة الأردن.

(١٤٧)

وفيما بعد وفاة عبد المنعم رياض ظهرت في الأدبيات التاريخية المروية عبارات كثيرة تدل على مدى الإحباط الذي عاشه عبد المنعم رياض في أثناء قيادته لجبهة الأردن.

وعلى سبيل المثال فإن الدكتور زكي سويدان يروي على لسان عبد المنعم رياض

بعض ذكرياته عن قيادة جبهة الأردن في حرب ١٩٦٧ وهو ينسب إلى الشهيد عبد المنعم رياض قوله:

«حين تحققت من قصور الدفاع الجوي انسحبت بالجيش الأردني بالطريقة المثلى فلم أخسر شيئًا».

(١٤٨)

كذلك يروي الدكتور سويدان عن عبد المنعم رياض إضاءة أخرى لموقف القيادة العربية (السورية والعراقية) من الحرب:

«... ذكر أنه عند تكليفه بقيادة الجيش الأردني أحال الملك حسين إليه مشكلتين، الأولى: أن أركان حرب الجيش السوري توقف عن أخذ استعداد معين للحرب، وكان الطريق مفتوحا دون دفاع إلى دمشق، ولما ناقشه الفريق رياض أخذ الضابط السوري يناقش لمدة ساعة، ثم تساءل: هل أتبع المدرسة الروسية أم المدرسة الغربية في الاستعداد؟ وأخيرا أصدر الفريق رياض أمره إليه.. مع أنواع السباب التي لا يمكن ذكرها».

«ثم جاء مسئول الجيش العراقي وأخذ يتكلم، فسأله الفريق رياض: هل معك ذخيرة؟ فأجاب العراقي: لا والله.. فقال له الفريق: يعني أنت «طوفشجي» ليس إلا.. و«الطوفشجي» هو الذي ينظف السلاح، وأصدر إليه أوامره».

(١٤٩)

وفي كل الأحوال فقد حفظ لنا التاريخ وثيقة كتبها عبد المنعم رياض نفسه ملخصا سير المعارك التي قادها وجعل عنوان هذا التقرير:

«**مناقشة موضوعية لسير العمليات في الجبهة الأردنية والاستنتاجات والدروس المستفادة منها**».

وقد كتب عبد المنعم رياض في هذا التقرير التسلسل الذي مرت به المعركة:

- «**أولا**: لم تكن هذه المعركة من وجهة نظر مسرح عمليات الجبهة الأردنية معركة متكافئة بأي حال من الأحوال، ولم يكن في الإمكان أن تنتهي إلا إلى النتيجة التي انتهت إليها فعلا».

- «من ناحية قد أدت المفاجأة التي منيت بها القوات الجوية في الجمهورية العربية المتحدة إلى حصول العدو على السيطرة الجوية عموما منذ أولى ساعات العمليات، وبالتالي تكبدت القوات الجوية السورية خسائر كبيرة استبعدتها عمليا من جو المعركة، مما أدى إلى خوض المعركة في الجبهة الأردنية بلا معاونة أو غطاء جوي يذكر».
- «وأصبح العدو في موقف متميز إلى حد كبير، إذ كان يقوم بتدمير قواتنا جوا ثم يتقدم بقواته البرية عندئذ بلا عناء».
- «ومع أن القوات الجوية العراقية والأردنية قدمت كل ما في طاقتها المحدودة عددا، إلا أن ذلك لم يكن كافيا بأي حال لمعاونة القوات البرية، أو لتغطية عملياتها جوا، وذلك يرجع أساسا إلى قلة عدد الطائرات، وعدم جود مطارات في الجبهة الأردنية تسمح للمقاتلات العراقية المحدودة المدي بالعمل منها لتغطية عمليات القوات البرية الأردنية».
- «وعليه، وكاستنتاج عام، فإن المعركة كانت معركة جوية أولا وأخيرا، حصل فيها العدو على السيطرة الجوية منذ الساعات الأولى، وسهل ذلك لقواته البرية النجاح بلا عناء كبير».
- «وقد قاتلت الوحدات الأردنية قتالا مريرا في ظروف غير مقبولة، وأدت واجبها بكل أمانة وشرف، ولكن الموقف (التفوق) الجوي المطلق لصالح العدو لم يمكنها من أداء مهمتها».

(١٥٠)

ويبدأ رياض في تقييم مواضع الاختلاف في سير العمليات يوما بيوم فيقول:

- «**ثانيا**: هناك بعض نقاط مثار تساؤل ومناقشة بحق، وقد قمت بتفسيرها للسادة القادة، ألخص أهمها فيما يلي:
- «في اليوم الأول للعمليات صدرت الأوامر للواء ٦٠ مدرع بتعزيز قطاع الخليل، واللواء ٤٠ مدرع بأن يحل محله كاحتياطي في موقع النبي موسي، خلف محور القدس شمال البحر الميت، ثم ألغيت هذه الأوامر، وصدرت أوامر أخرى إلى اللواء ٤٠ مدرع بتعزيز قطاع جنين، وكان تحركه الأول سببا في تأخيره مدة ساعتين».

«وبالإجابة على ذلك أورد الآتي:

- «بناء على المعلومات المتيسرة عن العدو عندئذ، كان تركيز قوات العدو ومدرعاته حول منطقة بير سبع وما غربها، ولم توجد أية معلومات عن تركيز مدرعاته في الشمال، وكان الموقف عندئذ يوحي بأن العدو قد يلجأ إلى الهجوم على محورين: محور القدس النبي موسي، ومحور الخليل شمال البحر الميت».
- «وكان قطاع الخليل مدافعا عنه بلواء حطين على مواجهة واسعة، وكان الموقف يستدعي فعلا تعزيز قطاع الخليل بلواء ٦٠ مدرع، وخصوصا بعد أن بدأ وصول وحدات اللواء الثامن العراقي، ولما اتضح اتجاه هجوم العدو على محور القدس شمال البحر الميت عن طريق أريحا، واقترن بتركيز مجهوده على اتجاه جنين طوباس، ألغيت هذه التعليمات، وصدر الأمر للواء ٤٠ مدرع بتعزيز قطاع جنين».
- «وفي رأيي أن الوضع الأول هو الذي كان أكثر احتمالا، طبقا لمعلومات الاستخبارات الميسرة عندئذ، وأن تغيير الأوضاع أثناء المعركة طبقا لموقف جديد ظهرت كمفاجأة هو إجراء سليم أيضًا، فقط، يلزم تفهمه».

(١٥١)

ثم يناقش عبد المنعم رياض الوضع الذي وصلت إليه الحرب في اليوم الثاني من القتال:

- «**ثالثًا**: في النصف الثاني ليوم ٦ يونيو، وبعد اختراق العدو لقطاع جنين رغم تدعيمه باللواء ٤٠ مدرع، ونجاح العدو في الاختراق شمال القدس واتجاهه إلى أريحا، أصبح الموقف واضحا في أننا نواجه أحد أمرين:
- «إما الاستمرار في القتال، وهذا يعني إمكان وصول العدو إلى منطقة الوادي شمال البحر الميت، وتطويق القوات الأردنية بالكامل.
- «أو الانسحاب إلى الضفة الشرقية».

«وكان الحل الثاني هو الحل المعقول عسكريًا، وعليه فقد صدرت التعليمات لجميع الوحدات بذلك، إلا أنه خلال ليل ٦ ـ ٧ يونيو صدر قرار

مجلس الأمن بإيقاف القتال، وكان هناك أمل في تطبيق هذا الأمر من ناحية العدو، نتيجة للضغط السياسي عليه، وبناء على ذلك فقد عاد الأمل يراودنا في الاحتفاظ بمعظم الضفة الغربية والقدس التي كان قرار الانسحاب منها يعز علينا جميعا، وعليه فقد صدرت الأوامر بإلغاء الأمر الأول سعت ٢٣٥ بي ٧ يونيو».

«وما حدث بعد ذلك كان عكس ما تمنينا، واستمر العدو في القتال بغية الوصول إلى الوادي، مما اضطرنا إلى تأجيل أمر الانسحاب إلى اليوم التالي ٧ يونيو، وهذا أحدث خسائر أكبر في الجيش الأردني، خصوصا في لواء حطين الذي تكبد خسائر كبيرة أثناء انسحابه نهارا تحت قصف جوي عنيف».

«إلا أنني أرى أن التضحية كانت تساوي الأمل الذي يراودنا».

(١٥٢)

ويصل عبد المنعم رياض إلى تلخيص العبر المستفادة من مثل هذه المعركة..

والدروس المستفادة من هذه المعركة هي:

«**أولا**: أن خوض معركة مع العدو يلزمه التنسيق والتحضير المسبق، والذي حدث هو أن القيادة العربية الموحدة التي كانت قائمة بهذا العمل قد شلت أيديها قبل المعركة بحوالي سنة، وعليه لم يكن هناك تنسيق بالمعنى المفهوم، ولم يكن هناك تجهيز لمسرح العمليات بشكل مقبول، والقيادة المتقدمة التي شكلت قبل المعركة بأيام لم يكن في وسعها أن تفعل أكثر مما فعلت، وهذا خطأ بين للسياسة العربية، والتي جنت على الجندية العربية قبل أن تجني عليها إسرائيل».

«**ثانيا**: لا معركة بدون دفاع جوي، ومعاونة جوية مقبولة، وما يلزمها من تجهيز مطارات ومواصلات، وقد خاضت القوات الأردنية والعراقية المعركة ببسالة منقطعة النظير، ولكن هذا لا يكفي، وإني على يقين من أنه لو أمن للوحدات أقل ما يمكن من الغطاء الجوي والمعاونة الجوية، لأخذت المعركة شكلا آخر».

«**ثالثا**: تشكيل القوات الأردنية ينقصه الدفاع الذاتي البعيد المدي ضد الدروع، فمدفع ١٠٦ ممتار، ولكن مداه محدود، ويجب أن يدخل ضمن تشكيل اللواء المشاة مدفع م. د طويل المدي، ويستحسن أن تدخل الدروع ضمن تشكيل اللواء المشاة، بما لا يضطرنا إلى دعمها في أثناء المعركة بأسلحة مضادة للدبابات، وفرط عقد لواءات الدروع».

«**رابعا**: تشكلت القوات الأردنية من ألوية خصصت جميعها لقيادة الضفة الغربية، مما أدى إلى تعامل هذه القيادة مع سبعة ألوية، وهو أمر غير عملي، يجب إنشاء قيادة مجموعة ألوية أو قيادة فرق لكل ثلاثة لواءات، لتكون مسئولة عن تنسيق عملها على المحاور المختلفة».

«**خامسا**: كثرة انقطاع الاتصالات أثناء المعركة، مما أدى إلى فقدان السيطرة في كثير من الأحيان، وفقدان السيطرة معناه فقدان المعركة، لذا يجب إعادة دراسة وسائل الاتصال المباشرة وتدعيمها بشبكات تبادلية واحتياطية».

«**سادسا**: يلزم النظر في تكوين احتياطات عامة للقيادة الأردنية، في وحدات المدفعية ووحدات المهندسين، وبخاصة وحدات الموانع والألغام المتحركة التي يمكن دفعها للقطاعات المهددة أثناء المعركة».

(١٥٣)

وعلى صعيد ثالث ففي كتابه «حربنا مع إسرائيل» أثنى الملك حسين بن طلال ملك الأردن على جهود عبد المنعم رياض في قيادة جبهة الأردن وقال:

«... قبل عودته إلى القاهرة جاء ليودعني، كان الوقت بعد الظهر، وأنا أقيم في المكتب الجديد داخل القصر بعدما أصابت رشاشات الطائرات الإسرائيلية مكتبي القديم!».

«شكرته على مساعدته، وقلت له محاولا التخفيف من تأثره: «بذلت قصارى جهدك».

«قال لي: كم هو فخور بالطريقة التي تصرفت بها قواتنا، وأبدي أيضًا

ملاحظات أخرى، بينها رأيه الصحيح في السياسة العربية المسئولة عن هزيمتنا!».

«وكان تعسا مثلنا للطريقة التي انتهت بها المعركة في القدس وفي أماكن أخرى».

«جمعتنا أخوة السلاح، ونحن الذين تعاونوا وإياه، نعتبره كلنا صديقا».

(١٥٤)

وعلى الجانب الآخر فقد تعرض أداء عبد المنعم رياض في قيادته لجبهة الأردن لبعض النقد في ذلك الحين، وقد كان من المصادر التي انتقدت رياض في هذه الجزئية، كتاب صدر ببيروت في أعقاب نكسة يونيو بعنوان «المؤامرة ومعركة المصير»، وقد ألفه سعد جمعة رئيس الوزراء الأردني الأسبق، وكان أبرز نقد وجه إلى استراتيجيته أنه عرّض اللواء (٤٠) الأردني المدرع للمخاطر في أثناء المناورة به في الحرب، وربما كان من المهم أن نلقي الضوء على هذه النقطة على ضوء ما رواه رياض نفسه:

«كانت القوات المدرعة الأردنية تتألف من لواءين من دبابات «باتون ٤٨» هما: اللواء ٤٠، واللواء ٦٠».

«وكانت المخابرات الأردنية قد أفادت في تقاريرها المتتابعة حتى صباح ٥ يونيو بأن حشود العدو تتمركز في منطقة «القدس ـ أريحا»، وأن الهجوم الرئيسي سوف يبدأ على هذا المحور في الجنوب، وبناء على هذا فقد أصدر الفريق عبد المنعم رياض أوامره إلى اللواء المدرع ٤٠ بالتحرك من محور جنين في الشمال إلى محور أريحا في الجنوب، كان ذلك في الساعة الواحدة بعد الظهر، بينما كان الفريق رياض قد أصدر أمرا آخر، قبل ذلك بعشرين دقيقة، إلى اللواء المدرع ٦٠ الذي يحمي قطاع أريحا بأن يترك مكانه للواء ٤٠، ويتجه نحو الخليل ومنها إلى بئر سبع أهم معقل للمدرعات الإسرائيلية، وقد كان الهدف من هذه المناورة أن يحقق الفريق رياض الاتصال بطلائع القوات المصرية التي كان مفترضا أن تكون على وشك بلوغ المواقع الأمامية على الجبهة الجنوبية!».

(١٥٥)

ويشير التقرير إلى المتغيرات التي زادت من صعوبة إدارة المعركة على نحو واضح:

«ومع أن اللواء المدرع ٤٠ نفذ الأمر واتجه من جنين إلى أريحا، فإن تقارير المخابرات الأردنية عادت بعد ساعات لتشير إلى أن الهجوم الرئيسي للعدو سيكون على محور جنين في الشمال، (وليس محور أريحا الجنوبي كما أفادت قبل ساعات!). كما أفادت هذه التقارير بأن العدو حشد هناك ٣ ألوية مشاة ولواء مدرعا».

«وعلى ضوء هذه المعلومات المتغيرة عاد الفريق رياض فأصدر في الثامنة و٤٥ دقيقة مساء أمرا جديدا إلى اللواء المدرع ٤٠ الذي كان قد وصل أريحا بالفعل، بأن يعود بأقصى سرعة إلى مواقعه في الشمال على محور جنين، وهكذا فإنه في طريق الذهاب والعودة تعرض اللواء ٤٠ لقصف الطيران الإسرائيلي مما أوقع به خسائر جسيمة».

وهكذا فإن قراري رياض المتتابعين في هذا الصدد لم يصدرا إلا على ضوء المعلومات المتاحة التي قدمتها المخابرات الأردنية، وذلك تبعا لحقيقة المعلومات المتغيرة، ومع ذلك فإنه لم يسلم من النقد.

(١٥٦)

ومن الإنصاف هنا أن نشير إلى أن جهد عبد المنعم رياض في جبهة الأردن في الأيام القليلة التي أعقبت المعركة لا يقل عن جهده في أثناء المعركة.

ذلك أنه عندما علم باختياره رئيسًا لأركان القوات المسلحة في مصر، وكان لا يزال في عمان، أرسل برقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر يطلب مهلة لبضعة أيام، يعيد فيها ترتيب أوضاع القوات الأردنية وتوزيعها على مواقعها الدفاعية الجديدة على الضفة الشرقية لنهر الأردن، بحيث تتوزع الواجبات في هذه الجبهة بين القوات الأردنية والعراقية.

وقد استغرقت هذه العملية من رياض تسعة أيام كاملة، عمل خلالها بجهد خارق

وغير عادي، مواصلا الليل بالنهار، يقطع في كل نهار الضفة الشرقية لنهر الأردن بطولها من العقبة جنوبا إلى الحدود السورية العراقية شمالا، فلم يكن في الأردن بعد الحرب طائرة واحدة، ولا مطار واحد يصلح للاستعمال! ولهذا فإنه كان يمر بسيارته الجيب على القرى الأردنية المنتشرة على الطريق، وكان أهل القرى يحسون به رغم أنه لم يكن يمضي في موكب، وإنما كان يقود سيارته بنفسه!

«كان الأهالي يهرعون إليه وهم يهتفون بحياة الحسين وعبد الناصر، ويهتفون باسمه وباسم القدس! ويزدحمون حول سيارته فينزل إليهم، يتبسط معهم في الحديث، يكلمهم عن الصمود، فيكلمونه عن النصر الذي وعد الله به المؤمنين، وعن القدس التي يجب أن تعود».

الفصل السابع
رئاسة الأركـان

(١٥٧)

لم تكن الفترة التي قضاها عبد المنعم رياض رئيسًا للأركان سهلة ولا تقليدية، وإنما كانت الصعوبات والمشكلات تحيط بها من كل جانب، فقد وجد شهيدنا نفسه مسئولا عن جيش خرج لتوه من هزيمة قاسية عصفت بأساسياته ومكوناته، وعصفت أكثر من هذا بروحه المعنوية، كما عصفت بسمعته وصورته عند جماهير الشعب.

وبالإضافة إلى هذا فقد كان التوجيه السياسي الحاكم للقوات المسلحة مبالغا بل مفرطا فيما يرجوه في ظل الأوضاع القائمة، إذ كانت الفجوة كبيرة جدًّا بين الأهداف المرجوة، والإمكانات المتاحة.

وعلى مستوى العلاقات الإنسانية بين القادة فقد ألقت الفترة السابقة بظلال الصراعات القيادية على الوضع الجديد، ويكفي لتصوير هذا أن نشير إلى أن ترتيب قرارات إعادة بناء القوات المسلحة وتعيين قادتها قد صدرت بالترتيب الذي جعل القرار الأول خاصا بتعيين القائد العام (الفريق أول محمد فوزي)، والقرار الثاني خاصا بتعيين قائد القوات الجوية (الفريق مدكور أبو العز)، والقرار الثالث خاصا بتعيين رئيس الأركان (الفريق عبد المنعم رياض).

وكان هذا يعني ببساطة شديدة أسبقية قائد القوات الجوية (الفريق مدكور أبو العز) على رئيس الأركان (الفريق عبد المنعم رياض)، وقد كان مدكور بالفعل سابقًا في أقدميته العسكرية على عبد المنعم رياض، لكن كان معني هذا ببساطة شديدة أن قيادة القوات الجوية لا تتبع رياسة الأركان، وكان على عبد المنعم رياض أن يرأس الأركان في ظل وضع كهذا.

صحيح أن مدكور أبو العز ترك موقعه في قيادة القوات الجوية بعد فترة قصيرة بسبب اضطراب العلاقة بينه وبين الفريق أول محمد فوزي، لكن حلا كهذا لم يكن هو الحل المنطقي في تسلسل القيادة التي هي إحدى أساسيات أي عمل، فما بالنا بالعمل العسكري على هذا المستوى؟

(١٥٨)

وقد كان على عبد المنعم رياض أن يواجه كثيرًا جدًّا من هذه الأوضاع الشاذة بالحسم تارة، وبالدبلوماسية والحيلة تارة أخرى، حتى يمكن له أن يؤدي مهام المسئولية الملقاة على عاتقه في تلك المرحلة. من ناحية أخرى فلم تكن السلطة الأعلى التي يخضع لها رئيس الأركان سلطة واحدة، فقد نشأت في عهد عبد الحكيم عامر حلقات متعددة من السلطات التي حاول بها نظام الرئيس عبد الناصر أن يقلل (دون جدوى) من سلطة أو قبضة المشير عبد الحكيم عامر على القوات المسلحة، وقد بقيت كثير من هذه الأوضاع بعد هزيمة ١٩٦٧ بحكم القصور الذاتي، وهكذا فإنه في الوقت الذي عين فيه الفريق عبد المنعم رياض رئيسًا للأركان، كان هناك قائد عام للقوت المسلحة (هو الفريق أول محمد فوزي)، كما كان هناك في الوقت ذاته وزير للحربية (هو السيد أمين هويدي).

وقد ظل الوضع على هذا النحو إلى أن توحد المنصبان في يناير ١٩٦٨ بتولي الفريق أول محمد فوزي منصب وزير الحربية، مع صدور القانون رقم ١ لسنة ١٩٦٨ الذي يجعل وزير الحربية هو القائد العام للقوات المسلحة ويجعل القائد العام للقوات المسلحة هو وزير الحربية: أي يوحد بين المنصبين بحذف «واو» العطف التي تجيز أن يكون اثنان يشغلان المنصبين.

وربما يصعب على القارئ تصور أن الوضع في ١٩٦٧ كان على هذا النحو الذي ذكرناه في وقت كانت مصر أحوج ما تكون فيه إلى تجنب التمزق في كل موقع، فما بالنا بمثل هذا الموقع؟ وربما يستطيع القارئ أن يدرك ما يحدث الآن ما أشرنا إليه من مغزي حذف واو العطف من لقب وزير الدفاع حين يقال وزير الدفاع القائد العام للقوات المسلحة بدون ذكر الواو بين المنصبين.

(١٥٩)

وبوسع القارئ أن يعود إلى كتاب «الفرص الضائعة» لأمين هويدي (الذي كان وزيرًا للدفاع) ليقرأ بعض ملامح الخلافات بين صاحب ذلك الكتاب وبين الفريق أول محمد فوزي، وعلى سبيل المثال فإننا نجتزئ هنا بهذا المثل.

فقد روي أمين هويدي أنه لاحظ عندما عرضت عليه صور دشم خط بارليف، بعد أن تم ضربها ضربا متواصلا ومكثفا بواسطة المدفعية المصرية الثقيلة، أنها كانت سليمة تماما! وأن هناك فارقا كبيرا بين البيانات المعلنة والمملوءة حماسا وفخرا، وهذه الحقيقة الواضحة التي رآها بعينه.

وعندما أرسل أمين هويدي هذه الصور الفوتوغرافية إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر من خلال سكرتيره السيد سامي شرف سكرتير الرئيس للمعلومات، في القناطر الخيرية، اكتشف أنها لم تسلم للرئيس، وقد عرف ذلك عندما أرسل ألبوما آخر بصور ملتقطة حديثا لدشم خط بارلييف بعد آخر بيان عسكري يعلن تدمير الخط تماما، وهي توضح أن الدشم سليمة تماما أيضًا، ورأى أن يتصل بالرئيس عبد الناصر تليفونيا ليخبره بأن الألبوم الثاني في طريقه إليه، فأبدي الرئيس عبد الناصر دهشته، لأن الألبوم الأول لم يصل إليه، وغضب الرئيس وطلب إلى أمين هويدي أن يرسل إليه موضوعاته باسمه شخصيا دون مرور على سامي شرف.

....

وبخبرتي المتواضعة بشخصيات هذه القصة فإني أميل إلى القول بأن الرئيس عبد الناصر نفسه هو الذي كان يريد ما فعله الفريق أول محمد فوزي، وإلا فقد كان في وسعه أن يعين عبد المنعم رياض قائدا عاما محل محمد فوزي مع استبقاء أمين هويدي وزيرًا، لكن الذي حدث بالفعل أن أمين هويدي هو الذي خرج من دائرة هذه المناصب.

وقد روى أمين هويدي بعض ما حدث من هذه التفصيلات، أما عبد المنعم رياض فلم يتمكن من رواية ما حدث، وهو بلا شك كثير.

(١٦٠)

وقد عقّب الدكتور عبد العظيم رمضان على إحدى الروايات التي أوردها أمين هويدي فقال:

«هذه الشهادة هي وثيقة خطيرة منشورة، توضح أن القيادات العسكرية التي كانت تخدع الشعب المصري ببيانات عسكرية كاذبة في حرب يونيو ١٩٦٧، والتي عرّضت الشعب المصري لهزيمة مخزية أمام العصابات الإسرائيلية، لم تكن قادرة على خوض حرب تنتصر فيها كحرب أكتوبر ١٩٧٣».

«ولكن هذه الوثيقة تجعل المؤرخ يأسى ويحزن على أموال الشعب المصري التي كانت تهدر في ذلك الحين في شكل قذائف تقذفها المدفعية المصرية الثقيلة بصورة متواصلة وكثيفة على خط بارليف طوال حرب الاستنزاف، ثم لا تصيب الخط، كأنما كانت تقذف في الهواء، والعدو يضحك في كمه، والشعب المصري يقرأ في الصباح البيانات العسكرية الصارخة التي تعلن تدمير الخط، في حين أن الخط سليم لم يمس!».

«فهل هذا معقول؟ وهل لنا أن نشك في هذه الشهادة من الرجل المسئول في إدارة عبد الناصر عن الحربية بوصفه وزيرًا للحربية، ثم رئيسًا لجهاز المخابرات العامة؟».

«وإذا نحن شككنا في قيمة هذه الشهادة، والتزمنا بتصديق البيانات العسكرية التي كانت تصدر بعد ضرب مكثف للخط، والتي تفيد تدميره، فما هو، إذًا، الخط الذي حطمته القوات المصرية في يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣؟ هل كان خط بارليف أيضًا؟ أو أنه كان هناك خطان باسم بارليف؟».

....

....

ربما نتوقف هنا لنجيب على تساؤلات الدكتور عبد العظيم رمضان بأنه من الممكن في مثل هذه الحالة أن يتحطم الخط بضربات المدفعية الأولى في ١٩٦٧، ثم يعاد بناؤه مرة واثنين وثلاثا، فتأتي حرب ١٩٧٣ وهو موجود للمرة الأخيرة.

(١٦١)

ويميل الدكتور عبد العظيم رمضان في هذه الجزئية إلى ترجيح رواية أمين هويدي:

«لا نملك إذًا إلا أن نصدق الشهادة التي قدمها لنا السيد أمين هويدي في مذكراته المنشورة باسم «الفرص الضائعة»، وهي أن تلك القيادات العسكرية

كانت تكذب على الشعب المصري، وكانت تزيف البيانات العسكرية، كما فعلت في يوم ٦ يونيو ١٩٦٧، ومثل هذه القيادات لم تكن بقادرة على تحقيق نصر أكتوبر ١٩٧٣».

(١٦٢)

ونحن نعرف أن المشكلات التي واجهها عبد المنعم رياض وهو رئيس الأركان فيما يتعلق بالتنظيم والتدريب والتسليح والإمداد والتموين، وما إلى ذلك كله، كانت أكثر مما يطيق أي قائد تصوره، فضلا عن تحمله، لكن كفاءة رياض وتفرغه المطلق لمواجهة هذه المشكلات، ووفرة الوقت التي كان يعطيها للقيادة كل يوم كانت كفيلة له بالتغلب الدائب والمتجدد على المصاعب التي لم تكن تكف عن الظهور هنا وهناك.

وربما لا يتصور القارئ أنه بالإضافة إلى كل هذه الأدوار والتبعات والمسئوليات فقد كان على عبد المنعم رياض أيضًا أن يؤدي دوره في عملية التخلص من المشير عبد الحكيم عامر وجيوب التأييد التي كانت لا تزال باقية على الولاء له، والمطالبة بعودته!! وقد كانت هذه المهمة بالطبع من المهام الثقيلة على النفس، والتي ألقت بظلالها أيضًا على موقف هذه المجموعة من عبد المنعم رياض نفسه.

وتسببت هذه العملية بإجراءاتها المتوالية في أصعب ما واجهه عبد المنعم رياض من التحديات التي طالت شخصيته ومست شخصه هو نفسه.

وربما ينبهنا التأمل في الأحداث والشخصيات إلى حقيقة مهمة وهي أن كفاءة رياض كانت بمثابة العامل الأول الذي أسهم في إنفاذ خطة عبد الناصر في التخلص من هذا الانقسام الحاد الذي مثلته مجموعة عبد الحكيم عامر، التي كانت تتمتع بقدرات متفاوتة من العصبية والرغبة في البقاء في السلطة، بل وارتباط وجودها وحياتها بهذا البقاء.

(١٦٣)

وفي سياق آخر فقد كانت اضطرابات العلاقات التقليدية بين القائد العام ورئيس الأركان قد بدأت تأخذ منحنى التوتر الذي لا بد من وجوده في مثل ذلك النظام

الناصري الذي تقوم فلسفته على أن هذا التوتر أمر جوهري ومفيد لرئيس الجمهورية (أو الحاكم) كي يتمكن من إحكام السيطرة الكاملة على القوات المسلحة.

لكل هذا فنحن لا نعجب مما سننقله في الفصل التالي عن عبد التواب عبد الحي من حديث عن تأجيل الموافقة على نشر كتابه الذي أعده عبد المنعم رياض، وعن أن هذا الكتاب لم ينشر إلا بعد أن ترك الفريق أول محمد فوزي منصبه كوزير للحربية في مايو ١٩٧١.

(١٦٤)

وإذا أضفنا إلى هذا كله أن الفريق عبد المنعم رياض كان طيلة عمله رئيسًا للأركان في المدة التي تلت الهزيمة وسبقت استشهاده ضائقا أشد الضيق مما تعانيه الجماهير وما يتكبده الشعب من تقشف وتوفير وغياب للسلع والخدمات من أجل توفير اعتمادات التسليح التي يطلبها الجيش، لكنه لم يكن يستطيع أن يقصر أو يقبل بالتقصير في تزويد القوات المسلحة باحتياجاتها.

وهكذا فإن كان يقول لمحدثيه: «ماذا نفعل؟ إذا ضاع شرف الأمة فلن يستطيع أي قدر من الغنى أن يعوضها عنه».

وقد روى الرئيس السادات في مواقع عديدة أنه تناقش مع عبد المنعم رياض في أمر المعركة مع إسرائيل فقال له رياض: «إننا لو لم نحارب على إسرائيل فسوف نفقد رجولتنا لخمسين سنة قادمة!».

وجاء الرئيس السادات (إلى مقعد رئاسة الجمهورية) متأثرًا برؤية زميل دفعته (أو أولها) عبد المنعم رياض، الذي كان في واقع الأمر، من أصحاب الفضل في صياغة الروح التي أدت إلى نصر أكتوبر.

(١٦٥)

يمكن لنا القول بأن فكر رياض الاستراتيجي لم يكتمل ولم يعبر عنه على نحو ما أوضحناه من قبل إلا من خلال دوره القيادي في المعارك التي واجهها بعد هزيمة ١٩٦٧ من خلال موقعه في رئاسة الأركان.

لم يعد عبد المنعم رياض إلى القاهرة من جبهة الأردن (كما قلت من قبل) إلا في العشرين من يونيو، وقد عاد فاجتمع مع الرئيس جمال عبد الناصر اجتماعا طويلا، وقبل بداية الاجتماع أقسم رياض اليمين كرئيس لأركان حرب القوات المسلحة المصرية، وبدأ يناقش مع الرئيس عبد الناصر المهام الملقاة على عاتق قيادات الجيش لإعادة بناء القوات المسلحة وإزالة آثار العدوان.

وخرج رياض من هذا الاجتماع إلى عمل شاق في إعادة بناء قواتنا المسلحة، بادئا من المرحلة التي وصلت فيها قواتنا المسلحة إلى ما دون الصفر بعد هزيمة الخامس من يونيو، وقد أصبحت هذه القوات مبعثرة من دون رابط يربطها، أوعقد ينظمها أو قائد يقودها أو خطة توجهها أو هدف تسعى لتحقيقه، اللهم إلا النجاة!!

وليس في هذا الوصف البلاغي مبالغة من أي نوع، فبوسع القارئ أن يتصور الموقف على نحو ما كان.

(١٦٦)

وفي هذه الفترة تعاون رياض مع القائد العام الفريق فوزي ومع قائد الجبهة اللواء (حينئذ) أحمد إسماعيل وثلة قليلة من قادتنا العظام، اللذين بدءوا جميعا في العمل الجاد على الخروج بقواتنا المسلحة من هذه الحالة الصعبة التي وصلت إليها إلى مرحلة الصمود.

وبلغ الأمر بهؤلاء القادة أنهم كانوا يذهبون بأنفسهم فيجمّعون أفراد قواتنا ويعيدون تنظيمها وتشكيلها ويوزعونها على المواقع الميدانية على طول خط القتال.

(١٦٧)

يروى أن عبد المنعم رياض منذ خرج من لقائه بالرئيس في العشرين من يونيو، بدا مملوءا حماسة وأحلاما وآمالا كبارا، لم يتوان، وقد اتجه من فوره إلى مركز القيادة، وعقد مؤتمرا موسعا لكل القادة، وأخذ كل قائد يعرض، على ضوء الواقع الأليم، تقديره للموقف.

وعندما خلا الفريق رياض لنفسه بعد انصراف القادة بقي، على حد وصف الأستاذ

عبد التواب عبد الحي، في جلسته إلى مائدة الاجتماع، «يداه معقودتان تحت ذقنه، وعيناه على الحائط، وبين لحظة وأخرى تمتد يده اليمنى تضغط براحتها على النصف الأيمن من وجهه صعودا وهبوطا، وقد استغرق في التفكير حتى الصباح، وسرقته أعباء المهمة بعد ذلك فلم يغادر مبنى قيادة القوات طوال الأشهر الأربعة التالية أكثر من مرتين!».

(١٦٨)

ربما كان من الضروري أن نكرر التأمل بعد هذا في رؤية رياض لفكرة ما سمي بحرب الاستنزاف وطبيعتها، وفي الخطوات التي أشار بها أو أسهم من خلالها في تخطيط هذه الحرب.

وقد تناولنا عناصر هذه الرؤية بقدر ما استطعنا من البلورة والتفصيل ضمن الفصل الذي عرضنا فيه لملامح الفكر الاستراتيجي لعبد المنعم رياض، لكننا نتطرق في هذا الفصل إلى بعض الملامح التنفيذية في أداء الرجل لهذه المهمة النبيلة.

(١٦٩)

بذل عبد المنعم رياض جهدا كبيرا في وضع خطط التسليح لإنجاز التسليح الضروري والحيوي في ظل نقص إمكانات التمويل. وليس من قبيل المبالغة القول بأن رياض قد شارك مشاركة حقيقية وفعالة في اختيار كل قطعة سلاح زود بها جيشنا بعد هزيمة ١٩٦٧.

- وعلى سبيل المثال فقد كان عبد المنعم رياض هو صاحب فكرة تسليح القوات المسلحة برشاشات قصيرة (نصف بوصة) لمواجهة الطيران الإسرائيلي المنخفض جدًّا، ولما كانت إمدادات المعسكر الشرقي لا توفر هذه الرشاشات، فقد تم استيراد هذه الرشاشات بناء على توجيهاته من بلجيكا.
- كذلك فإن رياض كان صاحب قرار توفير عربات نصف مجنزرة للعمل مع الوحدات الميدانية بدلا من العربات ذات العجلات، ولم يكن لدى الاتحاد السوفيتي أو دول المعسكر الشرقي بضاعة حاضرة من هذه العربات، فتم السعي للحصول عليها من الدول الغربية، وتم إيفاد لجان مشتريات إلى إنجلترا

وأمريكا وألمانيا الغربية، وتم وصولها إلى مصر على سفن شحن مصرية في أواخر عام ١٩٦٧، وسدت هذه العربات فراغا كبيرا.

(١٧٠)

شارك عبد المنعم رياض في إعداد مسرح العمليات الحربية للدفاع الجوي بمجهود جبار، حيث تم وضع خطة نظام للدفاع الجوي بعد أيام قليلة من توليه مهام رئاسة الأركان.

وعلى الرغم من أن حائط الصواريخ المصري العظيم لم يبدأ بناؤه إلا بعد استشهاد الفريق عبد المنعم رياض، وبالتحديد في شهر يناير ١٩٧٠، إلا أن جهد الرجل في مراحل الإعداد لمثل هذه الفكرة لا يمكن إغفاله.

أما جهد رياض في رفع مستوى المقاتلين فقد كان جهدا عبقريا، وقد كان، كما أشرنا أكثر من مرة، هو الداعي إلى استصدار قرار جمهوري بتجنيد المؤهلات العليا والمتوسطة، كما كان أكثر الناس سعادة بهذا القرار، حيث كان منذ بداية دخوله الحياة العسكرية يحلم بأن يتسلم المتعلمون دورهم في خدمة القوات المسلحة، وألا يكون بين صفوف القوات المسلحة المصرية جندي واحد يحمل أقل من الشهادة الإعدادية، وألا تقبل الكلية الحربية غير أصحاب المجاميع المرتفعة من ذوي النبوغ في الثانوية العامة، مثلما تفعل الكلية الفنية العسكرية، وأن تعدل الكلية الحربية برنامجها الدراسي لتخرج ضابطا مهندسا على مستوى حربي وفني راق.

(١٧١)

وسرعان ما ظهرت في الأفق نتائج سياسات المقاومة المصرية للهزيمة الكبيرة التي وقعت في ١٩٦٧.

وقد توالت البشائر التي جعلت الشعب يستعيد بعض ثقته في قواته المسلحة.

فبعد تولي عبد المنعم رياض منصبه بأيام قليلة، كانت معركة «رأس العش»، وفيها أظهرت ثلة من جنود الوحدات الخاصة بقواتنا المسلحة بطولة خيالية عندما صمدوا أمام جيش من المدرعات والآليات الإسرائيلية التي حاولت الزحف إلى بور فؤاد آملة أن تحقق نصرا استراتيجيا جديدا لم تمكنها منه قواتنا اليقظة رغم قلة إمكانتها،

وإنما كان حجم هذا الانتصار أو هذا الصمود في أن قيمته الحقيقية كانت معنى كبيرا ليس هناك وصف أبلغ له من تعبير «عودة الروح».

فلقد أحس الشعب المصري يوم رأس العش أن النصر آت لا ريب، وأن هذا العدو مندحر لا مراء!

(١٧٢)

وحين كان عبد المنعم رياض يشرف على اليوم الذي أتم فيه ثمانية وأربعين عامًا (في الحادي والعشرين من أكتوبر ١٩٦٧)، كان عدد من ضباط البحرية المتميزين يقومون ببطولة عظيمة من خلال صواريخهم التي اعترضت طريق المدمرة «إيلات»، أضخم قطعة بحرية في أسطول إسرائيل بعد أن اقتحمت مياهنا الإقليمية، وسرعان ما تمكن الصاروخ من الهجوم على المدمرة وحتى أتى عليها، ثم أطلق جنودنا صاروخا ثانيا أفقد المدمرة اتزانها. وعندئذ أدرك الشارع المصري أنه قادر على أن يسحق أكبر قوة بعد أن سحق في دقيقتين وبصاروخين أكبر مدمرة إسرائيلية.

وكان هذا الانتصار المصري الذي أنجزه شبان متحمسون (بعيدًا عن توجيهات القيادة) فتحًا جديدًا في الحروب وطبيعة استعمالها، فلأول مرة يتم مثل هذا الانتصار بمثل هذه الوسيلة وفي هدوء استراتيجي غير معهود.

(١٧٣)

ثم مضت الأيام، وبدأ ديسمبر الشهر الأخير من عام النكسة، وأتاح الله للمدفعية المضادة للطائرات أن تسقط في اليوم الأول من سنة ١٩٦٨ ثلاثا من طائرات «الميراج» الإسرائيلية في مياه خليج السويس، وهكذا عاد سرب الاستطلاع الإسرائيلي الذي خرج أربعا ولم تبق منه إلا طائرة واحدة.

وهكذا أثبتت المدفعية المضادة للطائرات أن جو هذا الوطن وهواءه له درع واقية، كما أثبتت الصواريخ من قبل أن مياه هذا الوطن عزيزة كأرضه.

وفي هذين وقبل هذين كان الجندي المصري هو نفس الجندي الأبي صاحب البطولة في ملحمة «رأس العش».

(١٧٤)

وفي بدايات عام ١٩٦٨ بدأ عبد المنعم رياض ومعاونوه في وضع الخطة ٢٠٠، وقد كانت خطة عسكرية طموحة تهدف للوصول إلى حدودنا الدولية مع فلسطين المحتلة من خلال حرب تحرير طويلة.

وقد خرجت من إطار الخطة ٢٠٠ الخطة الشهيرة «جرانيت» (وتطويراتها) التي كانت تهدف إلى اقتحام خط بارليف والوصول إلى المضايق الاستراتيجية المتحكمة في شبه جزيرة سيناء.

وتوالت بشائر الانتصارات المحدودة والبازغة حتى إذا انتصف عام (١٩٦٨)، ومضت على الهزيمة سنة واحدة، كانت قواتنا العسكرية قد تعافت إلى الحد الذي مكّن قواتنا الجوية من خوض أكثر من معركة ضارية فوق منطقة القناة تمكنت فيها من إسقاط عدد من طائرات الميراج الإسرائيلية.

(١٧٥)

شهد يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٦٨ أول معركة جوية بين الطائرات المصرية وطائرات العدو بعد حرب يونيو ١٩٦٧، وفيها تمكن السلاح الجوي المصري من تدمير ٣ طائرات وإصابة الرابعة.

وبعدها بثلاثة أيام وقعت معركة أخرى في الساعة الخامسة من مساء يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٦٨ حيث انطلقت المدفعية المصرية الثقيلة والمتوسطة والهاونات والصواريخ المحملة على العربات لتوجه ضربة موسعة ومركزة على مواقع قواعد الصواريخ المعادية، والتي كان العدو قد حشد فيها صواريخ أرض ـ أرض الموجهة لكل مدن منطقة القناة.

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ثمان وستين (١٩٦٨) كانت معركة تدمير قواعد الصواريخ الإسرائيلية تطبيقا عمليا ناجحًا لسياسة الدفاع الوقائي التي أخذ بها رياض وزملاؤه العظام من قادة الجيش المصري.

وهكذا فإنه بحلول نهاية أكتوبر سنة ثمان وستين بدأت أسطورة التفوق النوعي للطائرات الميراج والطيار الإسرائيلي في الاهتزاز.

(١٧٦)

كان عبد المنعم رياض يولي للتدريبات والمناورات العسكرية أهمية كبرى، وقد عمل حتى تم إنجاز مناورة عسكرية كبرى بدأت في من ١٠ نوفمبر ١٩٦٨، وقد كانت هذه المناورة أكبر مناورة عسكرية مصرية في الصحراء الغربية حتى ذلك الحين.

وقد اصطلح بعض مؤرخي الحرب المصرية الرسميين على الأخذ بفكرة أن نجاح القوات المسلحة المصرية في الانتقال من مرحلة الصمود إلى مرحلة الردع كان بمثابة دليل على قدرة القوات المسلحة على تجاوز الهزيمة ومعقباتها الأولى، ويرى هؤلاء أن شهري سبتمبر وأكتوبر ١٩٦٨ كانا يمثلان الفاصل التاريخي بين مرحلة الصمود ومرحلة الردع.

وربما أن أبرز ما في التحول من مرحلة الصمود إلى مرحلة الردع كان هو بداية معارك المدفعية في شهر سبتمبر عام ١٩٦٨، وهي المعارك التي تكبد فيها العدو كثيرًا من الخسائر، قبل أن يشهد شهر أكتوبر ١٩٦٨ ، كما ذكرنا، معركة تدمير قواعد الصواريخ الإسرائيلية.

(١٧٧)

ثم إن القوات المسلحة المصرية خططت لمرحلة جديدة على طول جبهة قناة السويس مستخدمة المدفعية بتركيز شديد، وكان عبد المنعم رياض العقل المفكر وراء هذه المعارك التي بدأت مع بداية مارس سنة تسع وستين (١٩٦٩).

وتابع شهيدنا البطل أول هذه الأيام الخالدة وثانيها ثم سافر إلى بغداد فحضر اجتماع رؤساء أركان حرب جيوش الجبهة الشرقية، وعاد إلى القاهرة بمجرد أن انتهى من أداء واجبه، فحضر اجتماعات في القيادة العامة.

ثم أمر فجهزت طائرة خاصة حملته إلى مواقع القتال، ثم انتقل بسيارة عسكرية وأخذ يتجول في مواقع الجنود، ثم سأل عن أكثر الناس جهدا في معارك الأمس وذهب إليهم وطلب من الضباط أن يزور موقعا متقدما فأجابوه بأن هناك كثيرًا من المواقع، فطلب إليهم أن يزور أكثرها تقدما حيث كان من نصيبه أن يستشهد!!

(١٧٨)

استطاعت قواتنا المسلحة أن تثبت قوتها وقدرتها يومًا بعد يوم.

ووصلت هذه القوات إلى أعلى درجة لها من الأداء في هذا المجال، في أوائل مارس سنة تسع وستين (١٩٦٩)، حين استطاعت أن تدخل ما أسمته مصر بمرحلة الردع الفوري والدفاع النشط، وأن تكبد العدو خسائر في مواقعه المتقدمة بتقدمها في مواقعها، وبنيرانها التي كانت لا تفتأ تصبها على العدو.

(١٧٩)

ويتصل بدور عبد المنعم رياض في التمهيد لمعارك الاستنزاف استئنافه لجهوده في دعم التعاون العربي من أجل هذه المعركة، ومما يذكر أنه ظل يوالي جهوده في هذا المحور الحيوي، حتى إنه (كما أشرنا في فقرات سابقة) زار بغداد لأجل هذا الهدف قبل استشهاده بثمانية وأربعين ساعة.

ويروي الأستاذ عبد التواب عبد الحي بأسلوبه الجميل قصة تلك الأيام فيقول:

«كان قد وصل إلى بغداد ظهر الاثنين ٣ مارس، وقضى الأيام الأربعة في اجتماعات متصلة في رئاسة الأركان العراقية، وموضوع البحث «دعم الجبهة الشرقية»، وتحت الموضوع تندرج آلاف التفاصيل العسكرية والأسرار».

«وعصر الخميس انتهى آخر اجتماع، وحفاوة به ووداعا، أقاموا له حفل عشاء في «كازينو كسرى»٢٠ كم من بغداد، إيوان كسرى أنو شروان يقف في خلفية الكازينو شامخا بأبهته على الزمن، نظر رياض نظرة فاحصة للإيوان، ثم قال متمتما: «أول مرة أشوفه، رغم زياراتي المتكررة لبغداد، لم أكن أتصوره هكذا عظيما ومحتفظا بكيانه، وكأن كسرى قد أخلى إيوانه من لحظة، لنتفرج نحن عليه!».

«في العاشرة كان في مكتبه بمقر قيادة القوات، عاد إلى البيت في منتصف الرابعة بعد الظهر، تناول غداءه، ساعة من النوم، وفي السابعة مساء كان في مكتبه، لم يغادره إلا في الواحدة صباح السبت».

(١٨٠)

ويدلنا تصوير عبد التواب عبد الحي للأيام السابقة مباشرة على استشهاد عبد المنعم رياض على مدى ما كان يتمتع به الشهيد العظيم من القدرة على العمل الميداني وعلى التواجد مع الجنود والضباط في مواجهاتهم المتقدمة بعيدًا عن المكاتب والمسئوليات المرتبطة بقاعات المؤتمرات والمحاضرات:

«كان عليه أن يلقي محاضرتين على طلبة كلية الحرب من الضباط العظام، لكنه طلب اللواء حسن البدري مدير الكلية أيامها واعتذر عن المحاضرتين لمشاغله، أول مرة يتخلف فيها عن محاضرة له في كلية الحرب».

«لم يكن عبد المنعم رياض جنرالا من جنرالات المكاتب! ولم يكن يرضى أن تغيب قدماه عن تراب الجبهة أكثر من يومين أو ثلاثة، أما عقله فكان معها ولها، كل نبضة زمن، وأكشف سرًا: لقد كان يفكر قبل استشهاده بأيام قليلة في أن ينقل مكتبه بكامل هيئته وتوابعه إلى مكان ما في قلب الجبهة! القادة الناجحون في تاريخ الحروب فعلوا ذلك، وكسبوا المعارك».

(١٨١)

ويروي الأستاذ عبد التواب عبد الحي في هذا الإطار قصة من قصص إقدام عبد المنعم رياض على القيادة المتقدمة ومشاركاته الجسورة في الاستطلاع:

....

....

«صيف ١٩٦٨ أغسطس على الأرجح، الفريق عبد المنعم رياض يزور القطاع الجنوبي من الجبهة، موقع مصري متقدم قرب الدفرسوار، دخل الموقع، تقدم حتى كادت قدماه تلامسان ماء القناة، راح بمنظاره يرقب مواقع العدو على الشاطئ الآخر، لمحه قناص إسرائيلي، يا إلهي، لقد أطلق النار عليه! لكن الطلقة مرت فوق رأسه بسنتيمترات قليلة».

«قناص مصري في الموقع التقط رأس القناص الإسرائيلي وهي تطل من الدشمة، وبطلقة واحدة سكنت رأس القناص الإسرائيلي، ثم انكفأت من

فتحة الدشمة، وتدحرجت خوذته مع انحدار كومة الرمال التي تغطي أغلب بناء الدشمة، تدحرجت.. تدحرجت حتى سقطت في مياه القناة!!».

«وبعملية تفريغ سريعة لخسائر العدو الشاملة في ذلك اليوم، يتضح حجمها الجسيم: تدمير ٥ مواقع صواريخ «أرض أرض»، و١٢ دبابة، و٧ عربات نصف جنزير، و٦ مدافع ماكينة متوسط، و٦ نقط ملاحظة، و٤ وحدات مهندسين بمعداتها من الجرارات والكباشات، و٢ موقع هاون ثقيل، و٣ بطاريات مدفعية ميدان «البطارية ٦ مدافع! ،ومركزين لقيادة المدفعية، ومنطقتين للشئون الإدارية، أيضًا شملت القائمة: إسكات ٤ مواقع صواريخ «أرض أرض»، و٨ بطاريات مدفعية ميدان، وأخيرا ٣٩ فردا بين قتيل وجريح!».

«وفي دقيقة واحدة أسقط الملازم طيار محمد عبد الباقي إحدى طائرات العدو، داهمته طائرتان أثناء اشتباكه وأطلقتا عليه مدافعهما الرشاشة فسقطت طائرته، بينما قفز هو ليقع أسيرا في يد العدو على الشاطئ الشرقي للقناة، وما زال!».

الفصل الثامن
الاستشهاد

(١٨٢)

كان يوم استشهاد عبد المنعم رياض ولا يزال يوم من الأيام الجوهرية في حياة مصر، فقد بلور هذا الاستشهاد ما كانت مصر كلها ترنو إليه من دليل حيّ على روح المسئولية، وروح الفداء معا.

كانت مصر في العام السابق على استشهاد عبد المنعم رياض تعيش أقسى حالات التمزق.. كانت مظاهرات الطلبة (والشباب) تعبر عن تمزقها تماما، وكانت الجماهير تبحث عن مسئول حقيقي تعلق عليه المسئولية عما حدث في ١٩٦٧ من هزيمة ساحقة أفقدت الوطن أرضه وثروته وإمكاناته، بل أفقدته كل أمل في حاضر معقول، أو مستقبل ممكن.

وكانت العقول الكبيرة من شباب البلد تترك مصر في نزيف مستمر ومتصاعد إلى الغرب؛ حيث الفرصة مهيأة لممارسة الإبداع أو البحث أو العمل الجاد بعيدا عن الصراعات الضيقة، والإحباطات المتوالية.

كان الشعب، وهو معذور في ذلك، يتصور أن معركة الثأر لابد أن تتم بالسرعة التي تمت بها معركة الهزيمة، وكأن لسان حال هذا الشعب يقول إن ما أخذ «بالسرعة» لا يسترد بغير «السرعة»، فكيف للشعب أن يتصور أن هذا الانسحاق الذي تم في ستة أيام يستدعي سنوات من الاستعداد والتجهيز من أجل إزالة آثاره.

وكان عبد المنعم رياض هو ذلك الرجل الذي شاء له القدر أن يحقق بداية أو شرارة أمل المصريين في الحياة والنصر والثأر.. جاء استشهاده ليوقظ روح الأمة

العربية كلها وليثبت بكل وضوح أن بإمكان بطل واحد أن يعيد تشكيل الروح من روح يائسة قانطة إلى روح متمردة على اليأس والقنوط والاستسلام، حتى لو ضحت الروح بنفسها من أجل هذا التمرد الإيجابي.

(١٨٣)

ما أسهل أن نقول إن عبد المنعم رياض كان مندفعا بأكثر مما هو مطلوب، وما أسهل أن نقول إن عبد المنعم رياض تجاوز كل الأعراف العسكرية حين تقدم بنفسه، وهو رئيس للأركان، إلى الصفوف الأولى من المقاتلين، لكن الأثر الذي تركه هذا الاندفاع المتهور ـ على حد وصف الناقدين ـ لم يكن ليتحقق إلا بتكرار حدوثه مرة بعد أخرى، ولم يكن هذا الأثر ليتحقق ويتبلور بغير استشهاد هذا البطل نفسه في هذا الموقع المتقدم من خطوط النار مع العدو الإسرائيلي.

هنالك، وهنالك فقط، ولدت روح جديدة افتقدها عصر الثورة كله حين كان الاندفاع يقف عند حدود التصريحات والخطب، لكنه في يوم استشهاد رئيس الأركان تبلور في صورة أخرى تماما.

ومن الطبيعي، ولا نقول من العجيب، أن الأثر المعنوي الذي تركه استشهاد عبد المنعم رياض لا يزال يعطي مفعوله حتى يومنا هذا، وأن إيمان الشعب العربي بقيمة ما قدمه هذا الرجل لوطنه لا يزال يرتفع مع مضي الأيام.

لم يكن استشهاد عبد المنعم رياض مفاجئا لعارفيه من حيث المبدأ، وإن كان مفاجئا في لحظة حدوثه، والطريقة التي حدث بها، لكن الذين عرفوا عبد المنعم رياض عن قرب كانوا يعرفون أنه كان يمضي في طريق الاستشهاد بخطوات واثقة ومتكررة، فكم من مرة أقدم رياض بنفسه على تفقد القوات المحاربة في المواقع الأمامية، وكم من مرة شارك بنفسه في عمليات استطلاع جريئة.. بل مغامرة (وقد قصصنا بعض أمرها في نهاية الفصل السابق)، ولم يكن من السهل على الذين يستطيعون مناقشته أن يثنوه عن المضي في هذا السبيل الخطر أو المغامر، لكنهم مع هذا كانوا يتمنون أن تسهم الأيام والأحداث في ترويض نفسيته وروحه الوثابتين، لكن عبد المنعم رياض سبق هؤلاء وجعل روحه هي التي تروض الأيام رياضة صبت في النهاية في مصلحة وطنه، وقضية هذا الوطن.

(١٨٤)

ومن العجيب أن واقعة استشهاد عبد المنعم رياض قد صورت على أكثر من صورة في الأدبيات المتاحة، وسوف ننقل للقارئ بعض ملامح التضارب في الروايات المختلفة عن واقعة الاستشهاد، كما سوف ننقل له بعض ما أثار الشكوك حول سبب واقعة الاستشهاد نفسها، لكننا في الوقت ذاته نريد أن نؤكد على أن هذا كله لا ينفي الاستشهاد، ولا ينفي الأثر الإيجابي الذي تركه هذا الاستشهاد، سواء أكان هذا الأثر على الروح المعنوية، أم كان على وقائع الأمور وماديتها على الأرض المعركة نفسها.

وإني أعتقد بكل وضوح وثقة أنه إذا كانت معركة أكتوبر المجيدة قد حققت النصر الوحيد في تاريخ أمتنا في العصر الحاضر، فإن استشهاد عبد المنعم رياض قبل هذه المعركة بأربع سنوات كان هو الشرارة التي أطلقت الأمل في تحقيق مثل هذا الانتصار.

(١٨٥)

ذكرنا أن عبد المنعم رياض حرص على أن يزور أكثر المواقع تقدمًا، ومضى في طريقه إلى ذلك الموقع المتقدم، حتى وصل إليه وأصبح على بعد أمتار قليلة من شاطئ القتال ، وهنالك حادث الجنود ولاطفهم وأثني على جهدهم وطلب أن ينتقل معهم إلى خندق من الخنادق المواجهة للعدو مباشرة، فلما أن كان في هذه الحفرة، جاءت غارة تصدت لها المدافع المضادة للطائرات، وانفجرت شظايا وتطايرت، وأصابت واحدة منها رئيس أركان حرب الجيش المصري فنزف منه الدم غزيرا، والتف حوله ضباطه وجنوده بينما هو في الحفرة، ثم عُرف الأمر واكتشفوا أن الحالة أخطر من أن تنتظر، فأسرعوا به (أو نقلوه) إلى المستشفى، ولكن القدر كان أسرع منهم إلى روح عبد المنعم رياض التي صعدت إلى بارئها في السماء.

(١٨٦)

نتناول فيما يلي أهم الروايات التي صورت وقائع استشهاده ونشرت في حينها. ونبدأ برواية مَنْ كان بعيدا عن مسرح الحدث قبل أن نقترب من الحدث وممن شهدوا أرضه.

ويلخص الدكتور زكي سويدان قصة استشهاد صديقه الشهيد عبد المنعم رياض على نحو ما يكتب تقريرًا طبيًا فيقول:

«وفي يوم الأحد ٩ مارس ١٩٦٩ وكان بصحبته اللواء عدلي حسن سعيد قائد الجيش الثاني، وعند وصولهما الكيلو ٦ على قنال السويس، نزلا من سيارة القيادة، فسمع عبد المنعم صوت إطلاق صاروخ، فأخذ زميله دفعا إلى منخفض بجوار الطريق، والقوة الهدامة من التفريغ أحدثت الإصابة بهما، وكان خلفهما اللواء عبد التواب هديب قائد المدفعية، والعقيد حسني سكرتير عبد المنعم. وقد جمعت الشظايا من الحفرة التي استشهد فيها، وقد أحدثت إحداها إصابة بشريان البطن والساق أدت إلى استشهاده.. عليه رحمة الله».

□

وقد حرص الدكتور زكي سويدان في مذكراته على تكرار الإشارة العابرة إلى الشكوك التي ثارت حول مصرع عبد المنعم رياض، وأن هناك احتمالا قويا باغتياله بإعلام العدو بتواجده في مكان إصابته (وهو يشير في هذا الصدد إلى ما نشرته مجلة المصور في العدد ٢٧٤٥، ص ٣١ في ١٠ مايو ١٩٧٧ تحقيق الأستاذ ميشيل جرجس).

(١٨٧)

ننتقل إلى ما رواه الأستاذ عبد التواب عبد الحي في كتابه من تصوير صحفي جيد لواقعة الاستشهاد، وقد نشره في الأسبوع الذي استشهد فيه رياض، ثم أدرجه في كتابه العظيم «نسر مصر»:

«... أصدر الفريق رياض أوامره إلى قائد الموقع وضباطه بأن ينصرفوا بسرعة ليديروا المعركة، ولجأ اللواء.. قائد المدفعية إلى حفرة، بينما بقي نسر مصر في وقفته باسقا كشجرة الفلاوة، ثابت الجأش رغم دوي القنابل من حوله، بينه وبين أقرب ملجأ محصن مسافة يقطعها الإنسان مهرولا في أقل من ١٠ ثوان.. أنا نفسي (الضمير لعبد التواب عبد الحي) فعلتُها عندما زرت الموقع بعد أيام من استشهاده، وأرسل العدو مع النسيم ٣ دانات عيار ١٠٥ مللي، سقطت إحداها على بعد ٤٠ مترا مني!».

«لكن نسر مصر لم يفعلها، بقي مكانه يرقب، بكل حواسه، اتجاه الدانات والقنابل، ربما لم تطاوعه شجاعته لكي يلجأ لملجأ مستور، ربما ظنه تراشقا ببضع دانات ثم يتوقف، خصوصا بعد أن بدأت مدفعية الموقع وكل أسلحته في التعامل المركز مع العدو، وربما تعني احتمالا، لكن الأكيد أن الفريق رياض لو بقي في وقفته الفروسية هذه حتى نهاية المعركة لكان الآن بيننا حيا!!».

«وحكمة الإله في الذي حدث بعد ذلك: اللواء قائد المدفعية لجأ إلى حفرة حفرتها دانة مدفع أثناء معركة الأمس. سائق سيارة الفريق رياض لجأ إلى ساتر من الأسمنت، لكنه، كما سيجيء، لم يستره من الإصابة! سائق رئيس عمليات الموقع، وكان خلف الشهيد بـ٤ أمتار، جلس القرفصاء في مكانه حتى نهاية الاشتباك، فلم يصبه خدش واحد! أما الضابط المرافق للشهيد فقد هجم على رئيس الأركان في وقفته مشفقا، وجذبه إلى حفرة أخرى قريبة على يسار الطريق، وتمددا معا داخل الحفرة، فكانت المأساة، كما رسمها القدر!».

«لحظة.. ثم سقطت دانة مدفع دبابة «باتون» عيار ١٠٥ مللي، لم تسقط في الحفرة، ارتطمت وهي في قوس مسارها بشجرة فلاوة على الحافة الغربية للحفرة، وعلى ارتفاع ٥ أمتار فقط من ساق الشجرة، أحدثت الدانة انفجارا جويا، وانطلقت شظاياها القاتلة منتشرة إلى أسفل.. إلى الحفرة! أصيب الفريق رياض، وأصيب الضابط المرافق، قال الضابط المرافق متألما: «أنا انصبت يافندم»، ورد البطل: «وأنا كمان.. إنما بسيطة.. اجمد»

«وتوالت الانفجارات تقترب وتبتعد وتتوزع على مساحة الموقع كله».

(١٨٨)

ويواصل الأستاذ عبد التواب الحديث عن استطلاعه الحي:

«سألت الضابط المرافق، فيما بعد، فقد نجا، وتماثل تماما للشفاء! عن تقديره لعدد الدانات والقنابل التي انصبت على الموقع يوم ذلك الأحد الحزين، أجاب: ليس أقل من ٥٠٠ دانة! وسألت النقيب.. أحد ضباط الموقع نفس السؤال، أجاب: ليس أكثر من ٦٠٠ دانة، ما بين مدفعية

متوسطة عيار ١٥٥ مللي، وهاونات عيار ٨١ و١٢٠ و١٦٠ و١٨٠ مللي، غير الرشاشات نصف بوصة، والأسلحة الصغيرة!».

«خمس دقائق وتبادل الضابط المرافق مع الفريق رياض الممدد إلى جواره في الحفرة المكشوفة جملة قصيرة لا يذكرها بالضبط، وبعد خمس دقائق أخرى، أي في منتصف الثالثة تماما، عاد يسأله: «إزاي الحال دلوقت يافندم؟»، ولم يتلق ردا، كان نسر مصر قد صمت أبدا».

(١٨٩)

هكذا يقطع عبد التواب عبد الحي الشك باليقين عند هذه اللحظة جازما باستشهاد رياض وصمته الأبدي.. لكنه مع هذا، شأنه شأن كل الذين يروون مثل هذه اللحظة، يمضي مع الأمل في ألا يكون ما حدث هو ما حدث بالفعل:

«بينما تراب مصر يقفز في الجو مسعورا بفعل القنابل المتساقطة حول الحفرة، ثم يهبط على وجه رياض.. جسده.. أوفروله الزيتوني.. يهزه بحنان: «رياض.. لماذا الآن؟! والخضرة.. زرع مصر.. فروع أشجار الفلاوة الباسقة المتطايرة.. كانت تسابق شظايا قنابل العدو إلى جسد رياض.. تعشش عليه لتحميه، في محاولة أخيرة يائسة لإنقاذه من قدره المكتوب!».

«لكن رياض مضى.. تحررت روحه وحلقت إلى فوق.. فوق.. فاقت أشجار الفلاوة الشاهقة، مرقت فوق السحب الرمادية المنتشرة في سماء الموقع، وهي في تحليقها إلى برزخها لتنضم لخضم القديسين والشهداء، تري العدو وترصده ببانوراما واسعة، حتى العوجة والفالوجا، حتى حدود ٤٧!».

(١٩٠)

وينتقل عبد التواب عبد الحي بالقراء إلى قيادة الموقع ليصور لنا ما حدث في أعقاب واقعة الاستشهاد:

«نعود إلى قيادة الموقع نمرة ٦، داخل أحد الملاجئ المحصنة، تُدير المعركة بسعار وانهماك تام، ما كاد الرائد.. قائد الموقع يفيق من توجيه سيل الأوامر اللازمة لتشغيل الموقع وإدارة نيرانه، حتى اندفع من ملجئه مهرولا إلى ساحة

الموقع يبحث عن رئيس الأركان ومرافقيه، لم يجد لهم أثرا في الغابة كلها، ولا في الطريق الموصل إلى الصينية، ولا في الخنادق والملاجئ القريبة».

«لم يجد في عقله المنشغل بالمعركة احتمالا أرجح من أنهم لابد قد انصرفوا بسيارتهم على استعجال، أو تصرفوا على نحو يؤمن سلامتهم، وفي طريق عودته إلى ملجأ قيادة العمليات انفجرت دانة هاون من عيار ثقيل على بعد أمتار قليلة منه، فطار في الهواء وانكفأ على وجهه، لكنه قام سليما ينفض التراب عن وجهه، وعاد إلى الملجأ مستأنفا إدارة المعركة!».

«تليفون الميدان في الملجأ يبعث رنينا خافتا. قائد اللواء الذي يتبعه الموقع يطمئن على سلامة رئيس الأركان، والنقيب.. رئيس عمليات الموقع يرد: «أعتقد يافندم إنهم غادروا الموقع بعد بداية الضرب على طول»، ثم يضع السماعة بيد، ويهرش قلبه بيد أخرى، قلبه يأكله خوفا على سلامة رئيس الأركان!

«أرسل صف ضابط برتبة رقيب أول ليبحث عنهم في الملاجئ المجاورة للموقع أولا، ويتأكد ثانيا من وجود سيارة الفريق في وقفتها تحت المظلة القريبة من باب مبنى النادي، لكنه لم يجد رئيس الأركان في أي من الملاجئ القريبة، وبنظرة عاجلة على مسافة ١٠٠ متر تقريبا، إلى مظلة انتظار السيارات، لم يلمح السيارة، بينما كانت السيارة في مكانها فعلا، يسترها جدار المظلة عن الرؤية، إلا إذا استدار واقترب منها بالمواجهة، وهو الشيء الذي، من ارتباكه، والضرب منهمر! لم يفعله!».

«على أن الرقيب أول بتصرف منه أكثر ذكاء هرع إلى بوابة الموقع، سأل جنود الخدمة: «عربية سيادة الفريق خرجت»؟ رد واحد من الجنود: «أبدا»! وأصبح الموقف: سيارة الفريق وفق رؤيته الخاطئة ليست في مكانها، وهي في الوقت نفسه لم تخرج من بوابة الموقع، كيف غادرت السيارة الموقع إذن بحق الإله؟!!».

(١٩١)

ونمضي مع كل هذه التفصيلات التي تحاول أن تجد بصيص أمل في اللقاء بالشهيد بعبد المنعم رياض على قيد الحياة:

«نترك الرقيب أول تائها في الموقع يبحث عن حل لهذا اللغز الذي حبكه القدر، ونعود إلى ملجأ القيادة. تلفون الميدان في الملجأ يرسل أنينا، النقيب... يرفع السماعة ليسمع رقيب أول مدفعية يقول: إنه يسمع صوتا ينادي «يا دفعة.. يا دفعة»، لكنه لا يعرف مصدره».

«في اللحظة نفسها يدخل سائق قائد الكتيبة، وكان يسوق (يقصد: يقود) السيارة المرافقة، ليلقي قنبلة أضاءت الموقف كله: «يافندم.. سواق عربية سيادة الفريق برة متعور»، يا إلهي.. سواق سيادة الفريق؟! الفريق رياض إذًا مازال في الموقع، وما زالت أيضًا سيارته لم تغادره!!».

«واندفع الملازم ... يصحبه سائق قائد الكتيبة، وجد السائق في إحدى الحفر مصابا في فخذه ورقبته بعدد من الشظايا، لكنه ما زال حيا، وجد السيارتين في مكانهما الخبئ وراء المظلة. نقله إلى سيارة قائد الكتيبة، وأمر سائقها بأن ينطلق به إلى المستشفى العسكري».

«لو التفت الملازم إلى الحفرة المجاورة تماما، مسافة ٤ أمتار، للحفرة التي عثر فيها على سائق سيارة الفريق جريحا، لعثر على الفريق رياض ومرافقه، لكنه لم يفعل، وانهمك يبحث عن مصدر الصوت الذي كان ينادي من لحظات على «الدفعة».

«في تلك اللحظة التقى الملازم بالرقيب أول الذي كان قد قطع الموقع كله بحثا، حتى عثر على اللواء قائد المدفعية في إحدى الحفر. كان سليما تماما، إلا من صدمة سمعية بفعل الانفجارات المتوالية، أثرت على سمع أذنيه لبضع ساعات تالية، وعندما سأله الرقيب أول عن الفريق رياض ومرافقه أجاب بقليل من الإعياء: «تلاقيهم في حفرة قريبة.. والظاهر إنهم اتعوروا».

«وعاد الرقيب يبحث في الحفر القريبة دون جدوى، فرجع إلى قائد المدفعية ليسأله أن يعاونه في البحث، والتقى الثلاثة في لحظة واحدة: قائد المدفعية وقد انحسر عنه إحساسه بالإعياء فنهض واقفا، والملازم، والرقيب».

«وانطلق الثلاثة في حملة بحث في الحفر المجاورة عن رئيس الأركان، ومرافقه، بدأوا بالحفرة التي عثروا فيها على السائق الجريح، والتي تليها، وفي الحفرة الثالثة وجدوا الضابط المرافق في طرفها الغربي جريحا داميا، لمحوه أولا فهرعوا إليه، لكنه اعترضه بإشارة من إصبعه إلى الناحية الأخرى

من الحفرة، وقال بصوت أنهكه النزف والألم الأليم: «سيبوني.. الحقوا الأول سيادة الفريق».

□

ونصل إلى الوصف التراجيدي الذي قدمه عبد التواب عبد الحي لما تصور أنه وضع جثة الشهيد رياض بعد أن فارقته الحياة:

«في الجانب الآخر من الحفرة كان نسر مصر ممددا، رأسه في الاتجاه الغربي، وقدماه إلى الشرق في وجه مواقع العدو، وغصن متوسط الحجم من أغصان أشجار الفلاوة منكفئ فوقه، يغطي بخضرته معظم قامته الممدودة، حتى ليكاد يخفيها ويحميها، لكن الغصن الأخضر كان حزينا، يقطر من نهايته عصارة من دمع أبيض! والوقت لحظتها حوالي **السادسة مساء**، والشمس تغيب محتجة وأسيانة، أي أسي!».

(١٩٢)

هكذا نرى عبد التواب عبد الحي وقد أشار إشارة واضحة إلى التوقيت المحدد في عبارته، وهو ما يتعارض مع الروايات المعلنة الأخرى عن أن هذا قد حدث مبكرا عن ذلك التوقيت بكثير.

وها هم هؤلاء الجنود يبدأون مسيرة أخرى يواجهون فيها الحقيقة:

«وامتدت الأيدي ترفع الغصن الأخضر الحزين، وانكشف وجه رياض، جبهة مفرودة لا أثر فيها لتقطيبة ألم. تقاطيع الوجه منبسطة. عيناه مسبلتان، لكنك عندما تفتحهما تجد إنسان كل عين حاضرا في مواجهتك، وليس متدحرجا إلى الخلف كعادة الموتي، مما يدل على أنه كان يقظا تماما عندما داهمه الموت فجأة».

«الشفتان مزمومتان بحسم، ممطوطتان قليلا كأنهما تعدان بمشروع ابتسامة! أما الجسد فكان باردا برودة الموت، وثمة آثار شظايا صغيرة في أعلى الفخذ الأيمن عند التقائه بالبطن، وفي منتصف الجانب الخارجي للفخذ الأيسر، وعند رسغ اليد اليسري، وعلى الصدر آثار دماء ينتهي خيطها المتجمد عند الجانب الأيمن للشفتين المزمومتين».

«لا وقت لاستدعاء سيارة إسعاف، لفوا جسد الشهيد في بطانية رمادية اللون ومددوها على المقعد الخلفي للسيارة، وعلى المقعد المقابل أجلسوا الضابط المرافق، عدة كسور في عظام الساق والذراع اليسريين، وجراح، يسنده قائده قائد المدفعية اللواء... بحضنه وذراعيه، لكن مَنْ يسوق السيارة! سائق سيارة الفريق الشهيد قد أصيب.. وسائق قائد الكتيبة انطلق منذ بعض الوقت إلى المستشفى العسكري حاملا زميله الجريح، وتقدم الرقيب أول... ليقود السيارة إلى المستشفى بسرعة الريح».

«لكن القدر تدخل مرة أخرى ليدق في الموقف آخر إسفين مؤلم، فلم تكد السيارة تقطع بضع مئات من الأمتار حتى انفجر إطارها الأمامي الأيمن، وراحت السيارة «تغربل» وهي تجري بصعوبة وتتدحرج، والضابط المرافق بعظامه المسكورة يتألم فوق الألم ألما: «حاسب يا ابني.. على مهلك.. عضامي بتتكسر»، وأبطأ السائق من سرعته جدًّا، لدرجة أنه قطع الطريق إلى المستشفى العسكري (٦ دقائق)، بسرعة متوسطة، في نصف ساعة!!».

....

هكذا نرى من رواية عبد التواب عبد الحي وبكل وضوح أن الشهيد لم يصل المستشفى سواء أكان حيا أو أكان ميتا إلا بعد نصف ساعة من اكتشاف مكانه، الذي لم يكتشفوه أصلًا إلا بعد وقت طويل من البحث عنه!!

(١٩٣)

ثم يستعرض عبد التواب عبد الحي بعض ما رآه في الموقع رقم ٦، وكأنه يحاول استعادة سيناريو ما حدث:

«نتلكأ قليلا في الموقع نمرة ٦، قبل أن نواصل المشوار إلى المستشفى العسكري بالإسماعيلية لنتابع جسد البطل في رحلته الخالدة إلى الأبدية، عندنا الكثير هنا يهمنا!».

«... شيء يهمنا!: عندما بحثوا في جيوب الشهيد لحصر محتوياتها، لم يجدوا أكثر من نظارة بيرسول. نظارة أخرى طبية. ولاعة رونسون معدن أبيض. بطاقة عسكرية، وأخري عائلية. جزء صغير من «أستيك» ساعة يده

طراز أوميجا عثر عليه على حافة الحفرة، أما الساعة نفسها فقد أطاحت بها شظية ولم يعثر لها على أثر. علبة سجائر كليوباترا كاملة ومغلقة. سيجارة كليوباترا على بعد نصف متر من فمه، احترق منها سنتيمتر واحد ثم انطفأت، ويبدو أنه كان قد أشعلها قبل بدء الضرب مباشرة. محفظة سوداء اللون كل ما بها: ورقة بعشرة قروش مصرية!! و١٠ دنانير عراقية، و٢٣ دولارا أمريكيا، والدنانير والدولارات هي كل ما تبقى معه من رحلته إلى بغداد، وقد اعتاد عبد المنعم رياض عقب عودته من أي سفر إلى الخارج أن يورد للبنك كل النقد الأجنبي المتبقي معه، وكان الشهيد قد أعطى تعليماته لسكرتيره العسكري مساء الجمعة، يوم وصوله بغداد، بأن يورد الدنانير الـ ١٠، والدولارات الـ ٢٣ إلى بنك القاهرة صباح السبت، لكن زحمة العمل، واشتباكات يوم السبت ٨ مارس شغلت السكرتير عن أداء المهمة!».

«المهم أن الفريق عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية، لم يكن في جيبه من النقد القابل للتداول، لحظة استشهاده، غير ورقة بعشرة قروش مصرية!!».

«أي زاهد كان هذا الرجل؟!».

(١٩٤)

وقد حرص عبد التواب عبد الحي على أن يناقش الشائعة التي راجت في أعقاب استشهاد المشير عن احتمال وجود دور للقوات الدولية في إبلاغ العدو بتحركات الشهيد بعد رصدها:

«... على إثر استشهاد رياض انتشرت في الجبهة شائعة قوية تؤكد أن قوات الأمم المتحدة في مراكز المراقبة على شاطئ القناة (١٨ مركزا.. ٩ على كل جانب) قد رصدت تحركات الفريق الشهيد وأبلغتها إلى قوات العدو!».

«وقد تحريت هذه الشائعة بدقة المحقق الجنائي (هكذا يصف عبد التواب عبد الحي نفسه أو يصف دوره في هذه الجزئية) أثناء زيارتي للجبهة في أعقاب حادث الأحد الحزين، وأبادر فأعرض لك، بمنتهى الأمانة، ما توصلت إليه».

«أكدت الشائعة أن قوات إحدى نقط المراقبة (لم تحدد على أي من الجانبين!) رصدت وجود الفريق رياض أثناء زيارته لموقع مشاة على القناة مباشرة بالقرب من القنطرة، وأنها أبلغت العدو بذلك، وأبلغت أيضًا نقطة المراقبة (لم تحدد الشائعة أيضًا على أي من الجانبين!) القريبة من الموقع نمرة ٦، التي أبلغت بدورها العدو في مواجهة الموقع فور وصول الفريق رياض».

«لذلك تقول الشائعة: بدأ الضرب على الموقع مباشرة بعد ١٥ دقيقة فقط من وصول الفريق الفقيد إليه!».

«وبالتحقيق الدقيق لهذه الشائعة في مواقعها الطبيعية، تبين لي أن أقرب مركز للمراقبة عند القنطرة على الشاطئ الغربي للقناة، أي عندنا، لا يمكنه رصد شخصية الفريق الفقيد، لبعد المسافة بينه وبين موقع المشاة الذي زاره، يمكنه فقط رصد السيارة التي كان يستقلها، الجيب ذات البابين، وهي من النوع الذي تستعمله رتب كثيرة متوسطة: عقيد عميد، وكثير من هؤلاء يترددون بسياراتهم المثيلة على نفس الموقع كل يوم دون أن يحس العدو بوجودهم، أو يطلق عليهم نيرانه!».

(١٩٥)

ثم يصل عبد التواب عبد الحي إلى استعراض الاحتمال الآخر وهو أن تكون نقط مراقبة دولية على الشاطئ الشرقي للقناة هي التي أرشدت الاسرائيليين عن وجود رياض، وهو في حديثه عن هذه الجزئية لا يمانع في اتهام نقاط المراقبة في الجانب الشرقي بأنها غير محايدة، وبأنها شوهدت كثيرًا وهي تساعد الإسرائيليين الذين يقدمون لها إغراءات كثيرة من الخمر والنساء!!

«والممكن الوحيد، أو الأكثر احتمالا أن يكون برج المراقبة على الشاطئ في القنطرة شرق، هو الذي رصد وصول الفريق رياض إلى موقع المشاة المتقدم، فبين الاثنين، كما يقول العسكريون: «ظهور متبادل»، أي أن كلا من الموقعين، موقع المشاة ومركز المراقبة، يمكنه رصد الآخر ومراقبة تحركات الأفراد فيه وإليه، ويؤكد هذا الشك أن قوات الأمم المتحدة في المراكز التسعة على الشاطئ الآخر، بما فيها مركز القنطرة شرق، يفضلون

قضاء إجازاتهم في القدس وتل أبيب، وهناك يستمتعون بإغراءات كثيرة، ليس أقلها: الخمر والنساء!».

«ويؤكد هذا الشك أيضًا حوادث كثيرة جرت في مراكز المراقبة على الشاطئ الآخر، تصادر أي ثقة في حياد هذا القوات «المحايدة»! من هذه الحوادث: «تكرر صعود واحد من جنود قوات الأمم المتحدة في مركز المراقبة بالقنطرة شرق بالذات، صعوده إلى أعلى سارية العلم فوق مبنى المركز، ويتلكأ للحظات بدعوي أنه «يفرد» العلم الذي طواه النسيم، وبعد نزوله بدقائق، تبدأ المواقع الإسرائيلية القريبة من المركز في إطلاق قذائفها على مواقعنا!».

«إن قوات الأمم المتحدة في مراكزها التسعة على الشاطئ الآخر كانت تشاهد عادة وهي تهرول إلى مخابئها قبل دقائق قليلة من أي اشتباك يبدأه الجانب الإسرائيلي!».

(١٩٦)

ويصل عبد التواب عبد الحي إلى تشخيص حالة مهمة من حالات التجاوز في عمل القوات الدولية المراقبة وحدود عملها، وهو يقدم ما يعتبره أدلة دامغة على انحياز هذه القوات للإسرائيليين:

«ينص قرار الأمم المتحدة بتوزيع قواتها في مراكز جانبي القناة، ينص على ألا تحتل أي قوات من الطرفين المصري والإسرائيلي، أو تتمركز بأسلحة لها، على مسافة تقل عن ٥٠ مترا من مبنى مركز المراقبة».

«لكن الذي حدث في أوائل أبريل سنة ١٩٦٨ أن رصدت قواتنا دبابة للعدو من طراز «باتون» تختفي وراء بلوك السكة الحديد عند «الفردان شرق» الذي تحتله قوات الأمم المتحدة كمركز لها، وعند أي اشتباك تتحرك دبابة العدو من وراء مبنى المركز لتطلق بضع دانات على قواتنا، ثم تعود لتستتر بالمبنى!».

«وحذرت قواتنا قوات المركز عن طريق مكتب الاتصال من مغبة هذا العمل الحربي غير المحايد، وحملتها مسئولية ما قد ينجم عن هذا التصرف، وعندما لم تمتثل قوات المركز أعادت قواتنا تحذيرها في اليوم التالي، وفي اليوم الثالث أثناء اشتباك لنا مع العدو خرجت الدبابة الباتون من مكمنها

وأخذت وضع إطلاق النار، لكن مدفعيتنا المضادة للدبابات كانت في انتظارها، أصابتها بقذيفة فأشعلت النار في برجها، لكنها تحركت في اتجاه مبنى المركز لتستتر به كعادتها، وظلت مدفعيتنا تلاحقها بقذائفها حتى فجرتها، وفجرت معها مبنى المركز!».

«رصدت قواتنا فردا من أفراد العدو في أحد مراكز المراقبة على الشاطئ الآخر، أثناء اشتباك، يصحح نيران قواته، وأمامه «شوب» من البيرة المثلجة!!».

(١٩٧)

ومن الغريب بعد هذا كله أن يصل الأستاذ عبد التواب عبد الحي إلى تقرير يؤكد فيه استنتاجه القائل بأنه إذا كان المراقبون الأمميون على الشاطيء الشرقي للقناة حيث القوات الاسرائيلية شياطين أو أقرب إلى الشياطين فإن المراقبين الأمميين على الشاطي الغرب للقناة حيث قواتنا كانوا أقرب إلى الملائكة أو القضاة المحايدين:

«وبقدر ما يمكن الشك في حياد قوات الأمم المتحدة على الشاطئ الآخر، بقدر ما تمكن الثقة في حياد زملائهم في المراكز التسعة المنتشرة على الشاطئ الغربي للقناة!».

....

وقد كان من الممكن للأستاذ عبد التواب عبد الحي أن يستنتج بسهولة أنهم لم يكونوا في صفنا على نحو ما كان أقرانهم في صفوف الإسرائيليين.

(١٩٨)

وبعد أن ترك الأستاذ عبد التواب عبد الحي قراءه متشبعين بهذه الشكوك المنطقية عاد ليناقش الشائعة من زاوية أخرى، وكأنه معني بتقوية جانب من جوانب الشائعة، وليس تأكيد أو نفي الشائعة نفسها:

«ثم أعود لأستكمل تحقيق الشائعة، إذا سلمنا أصلا بأن قوات مركز القنطرة شرق قد رصدوا وصول رئيس الأركان المصري إلى موقع المشاة، وأنهم تتبعوا خط سيره جنوبا، كيف يمكنهم إبلاغ مركز المراقبة المواجه للموقع

نمرة ٦ وتكليفه برصد وصول الفريق رياض إلى الموقع، إذا اكتشفنا أنه في مواجهة الموقع على الشاطئ الآخر (الشرقي) لا يوجد أي مركز للمراقبة أصلا؟!!».

«لكننا نكتشف أن لقوات الأمم المتحدة مركزا على الشاطئ الغربي بالقرب من الموقع نمرة ٦! ونكتشف أيضًا أنه، رسميا، لا يجوز الاتصال اللاسلكي بين مركز لقوات الأمم المتحدة ومركز آخر على الشاطئ الآخر، إلا عن طريق مكتب الاتصال: القاهرة.. قبرص، ثم المركز على الشاطئ الآخر، والعكس كذلك! ونكتشف ثالثا أنه رغم ذلك فإن أجهزة اللاسلكي لدى هذه القوات يمكن فنيا تعديل موجهاتها لتتصل بعدها عبر القناة مباشرة، ودون الرجوع إلى القاهرة ـ قبرص!».

«إلا أن الدراسة الدقيقة الطبوجرافية الموقع نمرة ٦ وما حوله توضح أن: «مركز المراقبة عند الموقع نمرة ٦ يتكون من فيللا ٣ أدوار، سقفها «جمالوني» منحدر على الطراز الأوروبي، يرتفع أعلى مطل فيه إلى حوالي ١٣ مترا».

«يفصل الفيللا عن الموقع، بما في ذلك طرق الاقتراب إليه، مبنيان: مبنى مستشفى هيئة قناة السويس، ويرتفع أعلى مطل فيها إلى حوالي ١٠ أمتار، ومبنى جامع الهيئة، ويرتفع سطحه إلى حوالي ١١ مترا، أما مئذنته، ارتفاعها فوق سطح الجامع ١٥ مترا، فقد أصيبت إصابة مباشرة أثناء أحد الاشتباكات، وسقطت واقفة في صحن الجامع، ولم يعد يرتفع منها فوق سطحه غير طرف طوله حوالي ٥ أمتار».

«أيضًا يفصل فيللا مركز المراقبة عن الموقع، وهذا هو الأهم، عائق من أشجار الفلاوة التي يصل ارتفاعها إلى حوالي ٦٥ مترا، وهي من الكثافة بحيث يستحيل أي ظهور متبادل بين أي تحركات داخل الموقع وبين فيللا مركز المراقبة!».

(١٩٩)

وهنا يصل الأستاذ عبد التواب عبد الحي إلى احتمال مردود عليه بسهولة، يؤكد به جانب الخيانة المتوقعة من القوات الأممية، وكأنه يدلنا باستنتاجه على إجابة محددة

تقول إن الفريق رياض كان مراقبا حتى من قبل وصوله إلى الموقع الذي استشهد فيه.. أي أنه كان مراقبا من مركز المراقبة وحتى موقع الاستشهاد لكن الذين استهدفوه استدرجوه لحظة بعد لحظة حتى أصابوه في الغابة بعيدًا عن المستشفى المركزي والجامع والعمران:

«... أصل إلى نتيجة أرجحها حكما في هذه النقطة: إذا كان العدو مباشرة، أو عن طريق مركز المراقبة عند القنطرة شرق، قد رصد وصول النسر الشهيد إلى موقع المشاة الذي لا يفصله عنه غير عرض القناة، فلماذا لم يضربه وهو على مرمي رصاصة.. بدلا من أن يضربه في الموقع نمرة ٦ بدانات المدافع؟!!».

(٢٠٠)

ثم يصور عبد التواب عبد الحي ما توصل إليه من طبيعة أجواء الموقف في المستشفى العسكري بالإسماعيلية، فنلاحظ أنه لا يزال يتحدث عن التوقيت الذي يدور حول الساعة السادسة، والسادسة والربع، والسادسة والنصف:

«المستشفى العسكري بالإسماعيلية وقد وصلت إليه السيارة الجيب بجسد الشهيد، وجراح الضابط المرافق، كان الاشتباك قد توقف في السادسة والربع مساء، بعد أن أصيب المستشفى أثناءه (حتى المستشفى!) بـ ٢١ دانة في مواقع متفرقة، ووصلت السيارة في السادسة والنصف».

«وفي غرفة العمليات بدأ على الفور الكشف على جسد النسر الشهيد للتأكد من وفاته، تولى الكشف بنفسه المقدم طبيب «م. ر» قائد المستشفى: لا نبض.. لا ضغط للدم بالمرة.. والجسد بارد.. وإنسان كل من العينين متسع.. وكلها علامات تؤكد أن الشهيد تجاوز مرحلة الموت الإكلينيكي.. توقف النبض والضغط، إلى مرحلة الموت الطبيعي الذي تتحلل فيه خلايا المخ وتبدأ في البلي».

«قلت لقائد المستشفى العسكري: «هل اكتفيت بالكشف الذي أجريته وقررت على ضوئه تحقق الوفاة؟».. «قال: لا.. طلبت من أحد معاوني أن يعيد الكشف كاملا.. وقد توصل مثلي إلى النتيجة نفسها».

«بالطبع أنت لست طبيبا شرعيا، لكن، في حدود الكشف الظاهري، كم من الوقت في تقديرك كان قد مر على حدوث الوفاة؟».. «ليس أقل من ٩٠ دقيقة.. وليس أكثر من ٣ ساعات».

هكذا نفهم من استنتاجات الطبيب التي رواها الأستاذ عبد التواب أن الشهيد وصل المستشفى بعد ساعة ونصف على الأقل من وفاته، وأنه وصل المستشفى بلا نبض ولا ضغط ولا حرارة مع اتساع في انسان العين.

....

....

(٢٠١)

نقرأ الآن رواية أخرى حول وقائع الاستشهاد أوردها الأستاذان محمد الشافعي، ومحمد يوسف في كتابهما «عبد المنعم رياض.. فارس الرحلة المستحيلة» الذي صدر عن «دار الشروق ٢٠٠٨»، وقد اعتمدا في بعضها على ما كتب الأستاذ فتحي رزق غداة حدوث الاستشهاد واعتمدا في المجمل على ما نشر في الصحافة المصرية:

«**الساعة الثالثة وخمس دقائق بعد الظهر**: «سيارتان جيب تدخلان نادي الشاطئ المعروف باسم «الدانفاه»، والتابع لهيئة قناة السويس في منطقة المعدية نمرة ٦ بالإسماعيلية».

«الفريق عبد المنعم رياض ينزل من السيارة، ويصافح جنوده يدا بيد، ويسأل القائد العظيم رجاله:«التعيين تمام؟ البوسطة بتوصل؟ يلتفت رياض إلى قائد الموقع ويسأله بود:«الشاي.. فين الشاي؟».

«يرد حكمدار الطاقم: «عنينا يا فندم بكل أسف عندنا شاي إنما بصراحة ما عندناش سكر، السكر خلص آخر دور شربناه من شوية.. يضحك رئيس الأركان ويقول: «الدور الجاي أما آجي اعملوا حسابي في كباية ولا أنتم بخلا؟ واوعوا تكونوا بخلا؟».

«**الساعة الثالثة والربع بعد الظهر**: «استعار الفريق رياض خوذة حكمدار الطاقم ومنظاره، وببضع قفزات كان على الشاطئ أمام النادي اتخذ من مرجيحة أطفال محطمة ساترا، وراح يراقب المزاغل الإسرائيلية على مسافة

٢٥٠ مترا فوق لسان التمساح بالشاطئ الآخر، وبنفس القفزات النشيطة عاد ليقول لأحد ضباط الموقع: اجمع لي مجموعة من الأفراد، عاوز اتكلم معاهم، يسأل الضباط: فين يافندم؟ يرد رئيس الأركان: يستنوني هناك عند الصينية، ثم لف حول مبنى النادي وراح بالمنظار يلاحظ المواقع الإسرائيلية من زاوية أخرى».

«**الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر**: «ما كاد الفريق رياض يغادر باب نادي الدنفاه بمنطقة نمرة ٦ بالإسماعيلية حتى انهالت دانات المدافع الإسرائيلية على الموقع، الدانات الأولى سقطت على مبنى النادي نفسه، والدانات التالية عبرته لتسقط على الرصيف خارج النادي، ومع زيادة القصف أصدر الفريق أوامره إلى قائد الموقع وضباطه بأن ينصرفوا وبسرعة ليديروا المعركة، وفي هذه اللحظة لجأ مرافقو الفريق عبد المنعم رياض إلى الحفر لتفادي الإصابة، بينما بقي القائد واقفا كالشجرة الشامخة».

«وسرعان ما اتخذ عبد المنعم رياض مكانه في خندق قريب، وإلى جانبه في نفس الحفرة قائد الجيش، وبالقرب منهما قبع مدير المدفعية في حفرة دانة قديمة».

«**الساعة الثالثة و٤٠ دقيقة**: دانة مدفع دبابة باتون عيار ١٠٥ مللي ترتطم في قوس مسارها بشجرة فلاوة على الحافة الغربية للحفرة التي يستتر بها الفريق عبد المنعم رياض، أحدثت الدانة انفجارا جويا وانطلقت شظاياها القاتلة منتشرة إلى أسفل حيث الحفرة، وأصيب الفريق رياض، وأصيب الضابط المرافق، وهنا قال الضابط: «أنا اتصبت يافندم». «رد عليه الفريق رياض: «وأنا كمان لكن بسيطة».

«وبعد خمس دقائق أعاد الضابط الحديث، لكنه لم يتلق ردا، وهنا فقط صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها، فارق الحياة وهو يرتدي أفرول الزي العسكري خاليا من أي رتبة، مخضبا بدمائه الطاهرة».

«**الساعة الثالثة و٤٥ دقيقة بعد الظهر**: لف الجنود جسد الشهيد في بطانية رمادي، ووضعوه في سيارة جيب، ولم تكد السيارة تتحرك حتى انفجر إطارها الأمامي، وأخذت السيارة تغربل واضطر السائق إلى السير ببطء شديد».

«**الساعة الرابعة عصرا**: وهنا تبدأ شهادة الأستاذ فتحي رزق باعتباره شاهد عيان:

«رأيت على البعد سيارة جيب صغيرة تقترب.. لست أدري ما حدث، ولكن خيل إليّ أن السيارة الصغيرة تسير بطريقة غير عادية كأنها تترنح، وعندما وصلت السيارة إلى مبنى المحافظة توقفت، ثم تقدمت فجأة نتيجة لخطأ قائدها فاصطدمت بعمود الكهرباء المواجه لباب الدخول الرئيسي لمبنى محافظة الإسماعيلية، واتجهت ببصري نحو باب السيارة المغلق الذي فتح بصورة غير طبيعية، وجاء صوت ينتحب من داخل السيارة وهو يسأل:«أين مبارك رفاعي المحافظ؟».

«واستطرد الصوت بنفس الصوت الباكي المفزوع: «أرجو إبلاغ أن الفريق عبد المنعم رياض معي في السيارة، وهو مصاب إصابة خطيرة».

«وأسرع أحد العاملين في المحافظة كان واقفا أمام الباب إلى الداخل وهو يردد: لحظة واحدة، بينما وجدتني أسرع نحو باب السيارة وأنظر إلى الداخل فوجدت ما جعل الدم يتوقف في عروقي، كان القائد المصري العظيم في غيبوبة كاملة، والدماء تنزف من كل مكان في جسده، وأنفه وفمه تخرج منهما خيوط الدم بلا توقف، وكان يجلس إلى جواره وفي حال إعياء شديد أحد القادة العسكريين المسئولين عن قيادة القطاع الأوسط في المنطقة رقم ٦ المواجهة للإسماعيلية، وكان مصابا في ساقه إصابات سيئة جدًّا، ولم يكن يستطيع هو الآخر أن يتحرك، وإن كان حاول التحدث أكثر من مرة».

«بعد لحظات وجدت المحافظ والمهندس مشهور أحمد مشهور قائد المقاومة الشعبية يسرعان من داخل المبنى إلى السيارة التي لا تزال تواجه عمود الكهرباء، ونظر المحافظ إلى الفريق عبد المنعم رياض قائلا: «ألف سلامة يا عبد المنعم.. سلامتك.. رد عليّ يا عبد المنعم».

«ووجه حديثه في نفس الوقت إلى الضابط الكبير المصاب والمرافق لرئيس الأركان: «خير يا عدلي، إيه اللي حصل، إزاي ده حصل؟».

«ولم يتلق المحافظ ردا، فأعاد كلماته بصوت مبحوح باك: «عبد المنعم.. أنت بخير.. سلامتك.. رد عليّ يا عبد المنعم»، وفتح عبد المنعم رياض عينيه لحظات ونظر إلى الجميع وهز رأسه بصعوبة شديدة».

«هنا جاء صوت المهندس مشهور أحمد مشهور محذرا: «علينا وبسرعة نقله إلى المستشفى العسكري أولا».

«وطلب المحافظ من سائق السيارة المضطرب، وكان برتبة رقيب، أن يتحرك إلى الخلف ويعدل وضع السيارة وينطلق إلى المستشفى».

«وعندما تحركت السيارة تساقطت دماء الفريق رياض على أرض الرصيف الذي كانت السيارة قد توقفت فوقه عندما اصطدمت بعمود الكهرباء.. تساقطت كميات من الدم في لحظات».

«أحسست ساعتها بأن الدماء تنزف من قلبي، ووجدت الجميع يبكون في صمت، واكتشفت أنني الآخر أبكي دون أن أشعر بالدموع المتساقطة، وأسرع المحافظ وقائد المقاومة الشعبية خلف السيارة الصغيرة التي انطلقت غربا، وهذه المرة كان السائق يسابق الريح».

(٢٠٢)

أما صحف القاهرة الصادرة في اليوم التالي فقد ذكرت أن الرئيس جمال عبد الناصر أبلغ بالنبأ في أثناء اجتماع مجلس الوزراء، فوجم للنبأ الذي فقد به الوطن رجلا من خيرة رجالات مصر والعسكرية، وأصدرت الرياسة بيانا جاء فيه:

«فقدت الجمهورية العربية المتحدة أمس جنديا من أشجع جنودنا وأكثرهم بسالة، وهو الفريق عبد المنعم رياض رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة، وكان الفريق عبد المنعم رياض في جبهة القتال أمس، وأبت عليه شجاعته إلا أن يتقدم إلى الخط الأول، بينما كانت معارك المدفعية على أشدها وسقطت إحدى قنابل المدفعية المعادية على الموقع الذي كان الفريق عبد المنعم رياض يقف فيه، وشاء قضاء الله وقدره أن يصاب وأن تكون إصابته قاتلة».

«ولقد كان من دواعي الشرف أن قدم عبد المنعم رياض حياته للفداء وللواجب في يوم مجيد استطاعت فيه القوات المسلحة أن تلحق بالعدو خسائر تعتبر من أشد ما تعرض له، لقد وقع الجندي الباسل في ساحة المعركة ومن حوله جنود من رجال وطنه يقومون بالواجب أعظم وأكرم ما يكون من أجل يوم اجتمعت عليه إرادة أمتهم العربية».

(٢٠٣)

وجاء في بيان من البيانات الرسمية التي نشرتها الصحف:

«تلقى القائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس جمال عبد الناصر نبأ استشهاد الفريق عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة في أثناء رئاسته لاجتماع مجلس الوزراء الذي كان يناقش تقريرا عن سير العمليات العسكرية على الجبهة، وغادر جمال عبد الناصر قاعة الاجتماع متجها إلى وزارة الحربية حيث استمع إلى تقرير تفصيلي عن واقعة الاستشهاد».

(٢٠٤)

وتقرر أن تشيع الأمة جنازة شهيدنا البطل في اليوم التالي لاستشهاده أي العاشر من مارس في الساعة الثانية عشر ظهرا، وخرجت الجنازة من ميدان عمر مكرم.

وعلى نحو ما كانت العادة في ذلك الزمن. مضت جنازة رياض في بطء شديد من ميدان التحرير حتى جامع جركس، فقطعت هذه المسافة التي لا تتجاوز كيلو مترا واحدًا في أكثر من ساعة.

(٢٠٥)

كانت مسيرة الجنازة مؤثرة إلى حد كبير، فقد خرجت جماهير القاهرة والوافدين إليها من المحافظات في موكب مهيب ضم أكثر من مليون لم يتح للنظام وترتيباته فرصة، وأخذ الشعب في الجنازة في هدير غاضب ينادي بالثأر لشهيده البطل وبالفداء لمصر العزيزة.

ومما يروى أن الرئيس عبد الناصر الذي حضر الجنازة عجز عن السير فيها من تلاحم الجماهير فرتبت أجهزة الأمن أن يدخل إلى أحد محلات شارع قصر النيل مبتعدًا عن الجنازة التي سارت في طريقها هادرة مندفعة.

كان وقع خبر استشهاد رياض على الأمة العربية مؤثرًا، وسارعت الحكومات العربية إلى إرسال وفود تمثلها في تشييع الراحل العظيم، بينما رفعت جماهير الشعب صور شهيدنا وسارت بها في شارع مدنها، وأدى المسلمون في أوطان كثيرة صلاة

الغائب على روح الشهيد الذي أعاد أمجاد الجهاد وضرب المثل الأعلى في الفداء بالنفس المقدامة.

(٢٠٦)

ومما قد يعجب له الإنسان الآن أن صحف القاهرة الثلاث: الأهرام، والأخبار، والجمهورية لم تكن تملك في أرشيفها صورة للشهيد عبد المنعم رياض! ولم ينقذ الموقف إلا حسن دياب مصور رئاسة الجمهورية بأرشيفه المنظم.

(٢٠٧)

نال اسم عبد المنعم رياض بعد وفاته كثيرًا من التكريم الرسمي، لكن هذا التكريم الرسمي يتضاءل إذا ما نسب إلى التكريم الشعبي والمحلي الذي لقيه عبد المنعم رياض في كل رقعة من أرجاء الوطن، فقد أطلق اسمه على آلاف المساجد والمدارس والشوارع والميادين والمستشفيات، وكل ما كان ممكنا للسلطات المحلية وللسياسيين المحليين أن يطلقوا اسمه عليه.

في القاهرة أطلق اسم عبد المنعم رياض على ميدان كبير هو أقرب الميادين إلى ميدان التحرير.. أكبر ميادين القاهرة، وقد شاء التطور الحضري للقاهرة أن يصبح هذا الميدان بعد وفاة الشهيد بمثابة نقطة الالتقاء والتفرع لطرق القاهرة بعد أن مّر عليه مسار كوبري ٦ أكتوبر، كما أطلق اسمه على شارع في حي المهندسين، وفي الإسكندرية أطلق اسمه في عهد الرئيس مبارك على النفق الرئيسي الذي يربط مداخل الإسكندرية بالكورنيش، وإن كان العمل في هذا النفق بدأ منذ عهد السادات.

لكن سيرة حياة عبد المنعم رياض لم تحظ بما تستحقه من تكريم يتيح لها على سبيل المثال أن تضمن وتدمج في مناهج التربية والتعليم بطريقة أو أخرى، وقد كان هذا أمرا متوقعا في ظل التقلبات السياسية والعسكرية التي مرت بها مصر عقب استشهاده.

(٢٠٨)

بقيّ في هذا الصدد أن نقرأ هذه القصة التي يرويها عبد التواب عبد الحي في مقدمته

لكتاب «نسر مصر عبد المنعم رياض.. حيا.. وشهيدا» عن المتاعب والصعوبات التي واجهته في نشر ذلك الكتاب وهي الصعوبات التي يصل في وصفها إلى حد ما يصفها بالمصادرة!!:

«هذا الكتاب.. كان المفروض أن يكون متاحا لك في سبتمبر سنة ١٩٦٩، أي قبل عامين تقريبا من الآن، لكنه تعرض للمصادرة، ومنع من النشر والمطبعة تتأهل لطبعه!».

«مَنْ يا تري يملك أن يصادر سيرة حياة شهيد العسكرية المصرية العظيم الفريق أول عبد المنعم رياض؟ وأي دوافع مريضة تبرر له مثل هذه الجريمة الآثمة؟».

«قصة أليمة، لكنها لابد أن تروي تبريرا للتاريخ، وإنصافا لروح نسر مصر الذي افتدي بدمه ترابها، لابد أن يستقر الاتهام على كتفي صاحبه ليتحمل، دون غيره، وزره ومسئوليته، وإن كان مثل هذا الاتهام يتضاءل أمام تهمة التآمر والخيانة العظمي التي تسحق الآن كاهله!!».

الإشارة هنا واضحة إلى الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية الذي وجهت له تهمة الخيانة العظمى في أحداث مايو ١٩٧١.

....

«وكنت قد نشرت جانبا كبيرا من مادة الكتاب، يتناول الحياة العسكرية لعبد المنعم رياض في مجلة «المصور» مسلسلا على حلقات استغرقت شهري يونيو ويوليو سنة ١٩٦٩، وفي ختام الحلقة الأخيرة كتبت واعدا جمهور القراء الذين اجتذبتهم سيرة الشهيد العطرة:

«لم يكن كل ما فات نشره من قصة حياة الفريق أول عبد المنعم رياض أكثر من «رياض القائد»، أما رياض الإنسان.. رياض المفكر.. رياض الرجل المكتمل الرجولة رغم عزوفه عن الزواج لأسباب وأسباب، أما عبد المنعم رياض العاشق للعمل، المتدله في حب تراب الوطن.. رياض الحاني.. الصادق.. الصارم.. العقلاني في تصديه لكل الأمور.. رياض بالقميص والبنطلون! رياض «كل هذا» سوف أقدمه لك في كتاب شامل تتيحه «دار الهلال» قريبا لمكتبتك، ليبقي حيا مخلدا عبر الزمن!».

(٢٠٩)

وقد مضى عبد التواب عبد الحي في رواية ما تعرض له كتابه من متاعب إلى الدرجة التي تروعنا حين نرى الأمور تسير على نحو ما كان، لكن إلمامنا وإلمام شعبنا بظروف العسكرية المصرية في تلك الفترة، هو ما يساعدنا على استيعاب ما حدث، وتصور أبعاده ، لكنا نلاحظ حرص الأستاذ عبد التواب على أن يلقي بالمسئولية على كاهل الفريق أول محمد فوزي مرة واثنين وثلاثًا، ثم على أن يظهر شماتنا في خروج هذا القائد من موقع المسئولية إلى السجن، على نحو ما حدث في مايو ١٩٧١ فيما سمي بثورة التصحيح!!

«ورغم هذا الوعد المعلن، ورغم تصديق اللواء محمد صادق مدير المخابرات الحربية أيامها على كل ما تم نشره، وحرص الفريق أول، سابقًا، محمد فوزي على قراءة الحلقات قبل نشرها بالمصور، ورغم عدم اعتراض المخابرات الحربية فيما بعد، على مادة الكتاب، سواء ما سبق نشره منه، أو تلك الصفحات العديدة الجديدة التي أضفتها إليه قبل تقديمه إلى المطبعة، وبينما كنت على وشك تسلم بروفة طبع الكتاب من المخابرات الحربية لتدور بها ماكينات الطباعة، إذا بأحد ضباط الأمن الحربي يبلغني رسميا أن الفريق أول، سابقًا، محمد فوزي يعترض على نشر الكتاب.

«والأسباب؟ لا أسباب! ولا حول ولا قوة إلا بالله!».

«أصبحت سيرة عبد المنعم رياض هكذا، وعلى هذا النحو الديكتاتوري المريض، مادة محرمة على الناس، محبوسة عن التداول! لكني أبدا لم أفقد الأمل! عشت عامين أناضل من أجل نشر الكتاب، وتصاعد الصراع وتصاعد، وأعطي الرئيس الراحل جمال عبد الناصر توجيها بنشر الكتاب، ثم عندما تابعت التوجيه في مكتب الفريق أول، سابقًا، محمد فوزي لم أعثر له على أثر!».

«ودارت الأيام، وسقط محمد فوزي في هوة التآمر والخيانة العظمي، واعتلي رفاق عبد المنعم رياض قيادة القوات، أخيرًا صح الصحيح، وجاء وقت التصحيح، عدل الإله يتجسم في النهاية ويقول كلمته العليا والأخيرة، إنصافا لذكري شهيدنا العظيم».

(٢١٠)

ومن الطريف أن الأستاذ عبد التواب عبد الحي كان يعول في الدفاع عن حقه في نشر كتابه على المادة ٣٦ من مواد دستور ١٩٦٤ المؤقت، ذلك أن كل هذه القصة حدثت قبل صدور دستور ١٩٧١ الدائم بعد شهور من حكم السادات، وهو يقول:

«ومن معاناة عامين مضيا أستفيد أثمن قطرات في عصير حياتي: الحق منتصر حتما، ومهما طال الزمن، لأنه اسم من أسماء الله».

«أيضًا: ليس في مقدور بشر، مهما تضخمت قوته، واستحكم جبروته، أن يصادر التاريخ وعبد المنعم رياض قطعة ثمينة من تاريخ مصر، ونضالها الدامي!».

«وأخيرا، ورغم كل شيء، فإن حرية الطباعة والنشر في مصر مكفولة، هكذا نص المادة ٣٦ من دستور مارس ١٩٦٤ المؤقت».

(٢١١)

و يشير الأستاذ عبد التواب عبد الحي إشارة عابرة إلى الرئيس السادات.

«ولو لم يكن من ثمار ثورة التصحيح الكبرى التي تمت على يد ناصر الحريات الرئيس الصديق أنور السادات، مساء ١٣ يونيو سنة ١٩٧١، غير إنصاف ذكري عبد المنعم رياض، والله لكفاها عزا.. وعدلا.. وتوفيقا».

(٢١٢)

والواقع أن الصعوبات التي واجهت الأستاذ عبد التواب عبد الحي وكتابه لم تقف عند هذا الحد، فإن كتاب الأستاذ عبد التواب عبد الحي لم يحظ من القبول الرسمي بما كان يستحق، حتى إن النسخ المطبوعة من أربعين عامًا لا تزال متاحة في مخازن دار الهلال.

الباب الرابع

التخليد

الفصل التاسع
مظاهر التخليد

(٢١٣)

حظي عبد المنعم رياض بأكبر قدر من التخليد بأسماء المنشآت (المستشفيات والمدارس والشوارع والميادين) ناله مصري على الإطلاق فقد حدث استشهاده في لحظة شحن معنوي هائل، واستمر الشحن حتى تحقق نصر ١٩٧٣ وما بعد نصر ١٩٧٣.

ويمكن القول بأنه لا تخلو مدينة مصرية من مدرسة باسمه ومسجد باسمه وشارع باسمه وكوبري أو نفق باسمه.

ونعدد من مظاهر تخليد عبد المنعم رياض التي أعقبت وفاته مباشرة:

- قررت أكاديمية ناصر العسكرية تخصيص المحاضرة الأولى يوم التاسع من مارس كل عام لتكون حول عبد المنعم رياض، كذلك قررت الكلية الحربية ومختلف الكليات والمعاهد العسكرية الأخرى نفس الأمر.
- قررت وزارة الحربية إطلاق اسم الشهيد على مبنى الدفاع الجوي، مع إقامة تمثال نصفي له في مدخل الجناح بالكلية الحربية.
- قرر محمد مبارك رفاعي محافظ الإسماعيلية في ذلك الوقت إطلاق اسم الشهيد على الشارع الذي سارت فيه السيارة التي كانت تحمل جثمان الشهيد في طريقها إلى المستشفى العسكري بقاعدة الجلاء العسكرية، وإطلاق اسمه أيضًا على واحد من أهم ميادين المدينة: ميدان عباس والمسجد الموجود به.
- قررت الكلية الحربية إطلاق اسم الشهيد على أول دفعة التحقت بالكلية بعد استشهاده (دفعة يوليو ١٩٦٩) في احتفال عسكري وشعبي.

- قررت الكلية الحربية تخصيص جائزة باسم الشهيد، تمنح لأول الخريجين في كل دفعة بها.
- قررت الأمانة العامة لمنظمة المدن العربية إطلاق اسم الشهيد على أحد الشوارع المهمة بكل مدينة عربية.
- قررت محافظة القاهرة شراء شهادات استثمار يخصص ريعها السنوي لأوائل طلبة الكليات العسكرية باسم الشهيد.
- قررت وزارة الأوقاف إطلاق اسم الشهيد على العديد من المساجد التي يجري بناؤها، كان أولها مسجد أقامته الوزارة على الطراز الفاطمي على طريق كورنيش النيل بمحطة طرة.
- قرر مجلس الأمة إقامة تماثيل للشهيد بكل من البهو الفرعوني بالمجلس، وأحد الميادين الرئيسية بكل من مدينتي الإسكندرية وطنطا، وبفناء المبنى الرئيسي بكلية الحرب العليا، ومدخل البهو الذي يحمل اسمه بالكلية الحربية، وبساحة الشهداء بجامعة القاهرة، وفي مدخل جامعة عين شمس.
- قررت إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة إنتاج فيلم تسجيلي يشمل لمحات من مراحل حياة الشهيد العظيم.
- قررت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين إطلاق اسم عبد المنعم رياض على إحدى فرقها العاملة داخل فلسطين المحتلة.

(٢١٤)

وقد كان الدكتور زكي سويدان حريصًا في مذكراته على الإشارة إلى دأبه في إحياء ذكري صديقه الشهيد عبد المنعم رياض بطريقته الخاصة، وهي طريقة من طرق الأوروبيين في تخليد ذكري الأعزاء عليهم حين يصدرون كتابًا تذكاريًا في موضوع علمي ما لكنهم يجعلون الكتاب مهدي إلى روح مَنْ يريدون تخليد ذكراه، وهي فكرة غير شائعة في مصر، هذا فضلا عن أنه في مصر التأليف نفسه وفي حد ذاته لا يلقي الاعتبار لذاته.

يروي الدكتور زكي سويدان فيقول:

«... وقمت في خلال ٤٠ يومًا بإصدار كتاب باللغة الإنجليزية في ١٦٠ صفحة، عن فشل أجهزة الجسم، بمناسبة يوم الأربعين لوفاته، وكانت فكرة الكتاب رمزًا لفشل أجهزة مصر التي جلبت علينا النكسة.. وكانت السبب في استشهاد عبد المنعم رياض، وقد أشادت بالكتاب وفكرته الأوساط العلمية في لندن، وقد وضعته أمانة عند عميد الكلية، وتباع النسخة بخمسين قرشا، والثمن المحصل يشارك في إقامة تمثال للشهيد في موضع استشهاده، وهو الكيلو ٦ على القنال».

هكذا كان الدكتور سويدان أقرب إلى الرومانسية في هذه الفكرة، لكنه سرعان ما وصل إلى نمط الاقتراحات العملية وهو يعبر عن سعادته بأن الميدان الذي أطلق عليه اسم عبد المنعم رياض أصبح بمثابة واحد من أهم ميادين العاصمة، على الرغم من أنه كان «صغيرا» حين أطلق المسئولون اسم عبد المنعم رياض عليه، وهو يشير إلى أنه طلب من المسئولين أن يطلقوا اسم عبد المنعم رياض على كوبري ٦ أكتوبر الحالي، ومن الجدير بالذكر أن كوبري ٦ أكتوبر في بداية إنشائه كان يسمى «كوبري رمسيس» حتى إذا ما تحقق الانتصار أطلق عليه اسم ٦ أكتوبر.

الفصل العاشر
قصائد رثـاء

(٢١٥)

قصيدة الشاعر نزار قباني

لو يُقتَلونَ
مثلما قُتلتْ..
لو يعرفونَ أن يموتوا..
مثلما فعلتْ
لو مدمنو الكلامِ فى بلادنا
قد بذلوا نصفَ الذى بذلتْ
لو أنهم من خلفِ طاولاتهمْ
قد خرجوا..
كما خرجتَ أنتْ..
واحترقوا فى لهبِ المجدِ..
كما احترقتْ
لم يسقطِ المسيحُ مذبوحًا على ترابِ الناصرةْ
ولا استُبيحتْ تغلبٌ
وانكسرَ المناذرةْ..

لو قرأوا ـ يا سيّدى القائدَ ـ ما كتبتْ
لكنَّ من عرفتهمْ
ظلّوا على الحالِ الذى عرفتْ..
يدخّنون، يسكرونَ، يقتلونَ الوقتْ
ويطعمونَ الشعبَ أوراقَ البلاغاتِ كما علِمتْ
وبعضهمْ..
يغوصُ فى وحولهِ..
وبعضهمْ..
يغصُّ فى بتروله..
وبعضهمْ..
قد أغلقَ البابَ على حريمهِ..
ومنتهى نضاله..
جاريةٌ فى التختْ..

✺

يا أشرفَ القتلى
على أجفاننا أزهرتْ..
الخطوةُ الأولى إلى تحريرنا
أنتَ بها بدأتْ..

✺

يا أيّها الغارقُ فى دمائهِ
جميعهم قد كذبوا..
وأنتَ قد صدقتْ..
جميعهم قد هُزموا
ووحدكَ انتصرتْ ..

(٢١٦)

قصيدة الشاعر عبد المنعم الرفاعي

يا خيال النصر فى يوم الفدا عز مســـــراك وعــز المفتــدى
كبرت لـما تلقتك الربـى وجثـا الشـــط وحيـاك المـدى
لك ما غنى وثنى وشـــدا طائـر الدوح وما الحـادي حـــدا
والدوالـي الخضـر رواها الندى وندائى كلـــما طاب النــدا

✺

عبرت روحك اطراف الحمى وسرت فى كل ســـمع نغمـا
مـــن ظلال الله مدت ظلها فهي نور الله ارضا وســـــما
ورويت الأرض عطرا ودما ودعـــاك الـثأر ان تنـــتقما
وفلســـــطين خيال كلما هاج كالشـــوق تجلى وبـــدا

✺

مارد من عســـكر الجند انبرى يذهل الســهل ويحتل الثرى
حامل رشـــاشـــه منطلق لا يـبـالي لهبـا أو عســكرا
خلف الذل بعيدا وجرى وارتدى ثـوب الـــردى واعـــتبرا
يدرك المرمى يرى او لا يرى ثـــم يـــلقى ربه مـستشهـدا

✺

دخــل الجنـة موفـور الـــسنا وحنـا العــرش عـليـه ورنـا
ما ثل فى طرفه طيف الحمى فهو فى الفردوس يبكـي الوطنـا
ودوى الذكر فى الأقصى دنا والخيـام السمر اشـتات المنـى
والفدائي باطـراف القنـاة يكتب النصـر ويملـي الـمـوعـدا

(٢١٧)

مصرع الفارس.. قصيدة الشاعر سليمان العيسي

(نظمها بعد أيام معدودة من استشهاد عبد المنعم رياض)

(إلى الدم العربي الذي غسل الإهانة، ودل على الطريق، إلى روح عبد المنعم رياض):

بيضـاء، شامخـة الأسـي سينـاء ... تُسقي بجرحـك روعة وتضـاء
بيضـاء تغسل أرضهـا وسماءهـا ... بسنا الرجولـة دفقة حمراءُ
بيضاء تنفـض في العـراء قبورنـا ... فإذا الطريـق شهادة وفـداء
وأحس عار الدهر، يجلد جبهتي ... بالنـار.. يستحـق رأسي الإغضاء
عامان.. أمضغ زفرتي مخنـوقة ... عامان.. قصة ذُلنا الأنباء
وأفيق أمس.. يفيـق كـل مجـلل ... بالموت.. تتُلع جيدها الصحراء
تّصحوا على نبـإِ الشهيد جباهنا ... وهو يضيء، ودمعنا خيلاء
مسح الدمُ البطلُ الهوانَ، وغُيبت ... في قاع نعشك نكسة سوداء

✺

يا رافعـا علـم التحـدي.. بعدمـا ... مات التحدي.. فالعرين إماء
يا ناثـرا مـزق الشظـايـا حـولـه ... والموت تحت جراحه استخذاء
يا صارخـا بالخانعين على الـذرا ... حفر القتال ذراكم الشَّاء
أنزلت عن صدر العروبة صخـرة ... وتزحزحت عن دربنا غاء
صُلبت أمانينا.. وديس وجودنـا ... وتشامخت أسطورة نكراء
القهقهاتُ على دمـي محمومـة ... ودمي يد مغلولة خرساء
قالـوا: ذَرونـا أمـة مشلـولـة ... في الريح.. قالوا: وحدنا الأحياء
ركبت أسـاطيـر البطولـة حفنـةٌ ... عن كل ساحة نخوة غُرباء

وزهت صيارفة القرون ببأسها وتململت غصَص، وعز بكاء
عشرين.. برقعت الجريمة وجهها وخيامنا ما تعرف الأنواء
عشرين.. نلفظ في الدروب فلا لقي أجسادنا حسبت، ولا أشياء
عشرين.. يلهو عالم بجنازتي والحشرجات على الرمال هباء
عشرين.. يغمض عينه عن جثتي ويمر.. لا خجل ولا استحياء
وأدق تابوتي.. بكفي مرة وبكفه.. وتلفني رقطاء
عشرين.. عشتُ على الطريق جزازة بيع مصري كله وشراء
قالوا: ذروناهم، فتلك قبورهم لا نأمة خلجت، ولا إياء
كذبت مزامر الجريمة كلها كذبت طبولُ جنازتي الزهراء
لم ننزل الميدان.. كانت أمتي في القيد.. في رئتي كان الداء
ما حاربت سمر الرمال، ولا مشى للموت، إلا الريح والضوضاء
نمنا على القيد الهجين ومزقت قيدي الهجن شظية بكاء
ألقمتها صدَر الرجال، فزغردت حطين.. وافتتحَ الكتاب «حراء»
إقرأ على المتسكعين رسالتي بدماك فيلطهر الجبناء
إقرأ عليهم سورة الفتح التي بيعت، فدفقة وهجها ظلاء
إقرأ على المتراكضن إلى الدجي يتخبؤون وتخجل الأضواء
إقرأ علينا من دمائك آية تهدر بغر دمارنا الأصداء
إقرأ علينا باسم ربك، باسمنا باسم العروبة.. كلنا إصغاء
عرفت ملايبني بصدرك جسرها فليغروا، جسر الخلود مضاء
جسر الحياة تمور في أعماقنا لهبا وتطفئها يد شاء
حملت شعار الفاتحين وهدها تحت النعال رخيصة إغراء

✺

يا فارس الصحراء.. يقتلها الظما والتر روّاح بها غدّاء
يا فارس الصحراء.. يطعم رملها دمه، فخر جحيمها أنداء

ما مات تاريخي العظيم، ولا انطفا وهج الشهادة فيه والشهداء
مـا مـات، يـا صقـر السـويـس وإنما سرقت نهاري ليلة لياء
زرعوا الجريمة فـوق قبـري مـرة بدءُ النشور جريمة شنعاء
زرعـوا على الأشـلاء إسرائيلهم وتحركت لتقاتل الأشلاء
الميت ينهـض، والقبـور قصيـدة والمنشدون إلى النزال ظماء
والفريـة الكبرى التي سلخـوا لها جلدي ليسر ما افتروه غطاء
الفريـة الكبـرى تصـدع ليلهـا وتناقلت بهتانها الأرجاء
مـا مـات تـاريخـي العظيـم.. ستنتهي إذ نستفيق القصةُ الصفراءُ
يمحو دمٌ صبـغ القنـاة هزيمتـي ويطل وجه حقيقتي الوضاء
الآن افتـحُ النـزال بـأمتـي وتشع دنيا كالضحي عزباء
دق الفدائيـون بـاب نشورنـا وكألف بري بالرسالة.. جاؤوا

✺

يا فارس الرمل الخضيب.. تمزقت بفمي السلاسل فالصرير غناء
إفتح جراحك ينغمس في وهجهـا جيل، وينبض في الصور إباء
بـدأ الربيـع يـدب فـوق دمارنـا ألم يُجدد أمة ونداء
أتموت ؟ ينبتُ ألف ألـف مقاتـل من دفق جرحك، تعشب البيداء
تلقـى بصـدرك أمـة مقـهورة مطر القذائف، أمة عزلاء
الآن نبتـدئ النـزال، وسـاحـة وطني الممزق.. ساحة ولقاء

(٢١٨)

الخوذة آنية زهور.. قصيدة الشاعر الفلسطيني معين بسيسو

لجهنم..
بالكلمة ذات القرط وذات الخلخال
بالشاعر ورابته، بالموال
وبسيرة فرسان بني «عبس وهلال»
لجهنم..
يا أوزان بحور الشعر العلنية
وقوفا في الصف
صفا واحدًا
بالخوذة والسونكي
يأكل الكلمات الهاربة من القاموس
يا كلمات ما طافت حول الكعبة
أو رجمت إبليس
صفا واحدًا
يا كل قوافي الشعر الخارجة على القانون
بجبين الشاعر، بجناح البجعة والتنين
طعنا في كل الأبواب المسدودة
نهشا في كل الأسلاك الشائكة الممدودة
تمزيقا لجميع الأستار

لجهنم..
يا زهر حزيران الذابل
ذي الأعناق المقطوعة
والراكع في تلك الجمجمة المكسورة
أعطانا عبد المنعم خوذته
آنية زهور

✺

سقطت قافية الميم وقافية الهمزة
فلتتقدم..
قافية أخرى فلتتقدم..
حيث هوي عبد المنعم
برغم زلزال فتح
قافية أخرى تتقدم..

(٢١٩)

من قصيدة الشاعر فؤاد حداد

يا سامعين أبناء بلد واحدة
تحت السما الواحدة أدان المعارك
وتعيشي يا مصر عمري ما أنسى نهارك
واحد وعشرين شهر بعد يوم تسعة يونية
الدمع نور بالشرف والعزة
والحزن نور في صميم القلب
عبد المنعم رياض
أكتر من أم وأب
لسه الحياة مبدأها
ما تبتسم لكش إلا من شهدائها
كل النوبات والورادي اللي بتعرفها
حيعرفوها ولادك لما يستشهد
كان رياض فارس مجاهد
السلاح والقلب واحد
في عيون الشعب خالد
كل أيامنا رياض
كان رياض أمة كريمة
نورت فيها العزيمة
لأجل ذكراه الرحيمة

كل أيامنا رياض
كان رياض دمعة في قلبه
يعرض الحق اللي طالبه
إحنا طول الليل نصاحبه
كل أيامنا رياض
كان رياض عايش حياته
بالعرق يسقي نباته
مبدأ الإنسان تباته
كل أيامنا رياض
كان رياض دايما يفكر
في النبات إزاي يكبر
احضنوا القطن المنور
كل أيامنا رياض

(٢٢٠)

قصيدة الشاعر أحمد فؤاد نجم

زعق الوابور ع السفر
أنا قلت كان بدري
نعق الغراب ع البشر
خطف الفراق بدري
جدع ما شفناش جدع
فات في البلد زيه
عيط عليه القمر
والنجمة في البدري
يا ننى عين البلد
يا ابن البلد يا عزيز
بكيت عيون الولد
والبنت
والعواجيز
يا قلب مصر النقي
وقلب مصر بياض
عزيز علينا اللقا
بعد الفراق يا رياض
يا عترة الحراس
يا بو الادين تنباس

يا ريتني كنت معاك
وشربت نفس الكاس
هطال يا دمع البكا
واللي بكي لم طال
دم الجدع يا جدع
سال ع الكنال هطال
يروي على أراضينا
حدوتة بالموال
بعد الصلاع النبي
يا ليل يا عين يا نضال
ملعون يا داء البكم
ملعون يا طول البال
بعد الوطن ما اندهس
وصار ترابه حلال
للغاصب الأجنبي
والجبنا والأندال
يا حر قلب الناس
على رنة الأجراس
الشعب كله رياض
ورياض مثل يا ناس
يا ننى عين البلد
يا ابن البلد يا شجيع
دمك عزيزع البلد
عمر العزيز ما يضيع

كلمة وقالتها البلد
في لحظة التوديع
بالدم نفدي البلد
لا سلم
لا تمييع
وإن كان طريقك سفر
تفنيه خطاوينا
وتغوص في جوف السحر
وعقولنا تهدينا
وإن كان طريقك حجر
حتبشبشه ادينا
ونرشه من دمنا
من عندنا لسينا
يا رنة الأجراس
دقي وصحي الناس
ملعون أبوك يا خوف
بعد الشرف ما انداس

(٢٢١)

رسالة إلى عبد المنعم رياض.. قصيدة الدكتور خالد الناصر

(ألقاها في جامعة حلب في حفل أقيم تكريما للبطل العظيم)

سـرى إلى العليـاء والأمجـــاد ... أخت الخلود ومنبت الآساد

يـا أمتـي.. يا رمـز كـل كريمـة ... أنت العطاء، ومدفن الأضداد

البـذل أنـت خلقتـه وجعلتـه ... وردا عليلا للوجود الصادي

لم تبخلي بـــدم، فقد أهـرقـتـه ... سمًا على الأعداء والحساد

وسللت من خيـر البنين صوارمـا ... أعيت لسان الدهر في التعداد

كـم خـالد أمثـال خالـد للعلـي ... كانت له الهيجاء خر جواد

دفعـوا لعـزك بالـفـداء ضريبـة ... بالنفس، بالأرواح، بالأجساد

تلك الشمـوع الساطعات تركتها ... واخجلتي! يا رفعة الأجداد

ورضيت مـن ضعفـي الفتـات ... ألوكه فرحا، وتطرق ذلة أمجادي!

تـرنـو إلى لحمـي البـغـاث ... كأنني ما كنت مثل النر.. كالصياد

مجـد العروبـة والمكارم والسنا ... خمشت عاه مخالب الأوغاد

داسـوا العريـن اليعربـي وطالما ... داست على هام الشموس جيادي

وا لوعة المجـد القتيل، أجـره ... خلفي تـراثـا.. والإبـاء ينـادي

يا عطشـة القلب الكسير إلى يـدٍ ... تستل سيفا ضـاق بالإغـماد

ويـا يقظ للعـرب من هذا الكـرى ... أدمى عيون المجد طول رقاد

يـا أمـة غفلت هلمـي استيقظـي ... قد عاث فيك كما أراد العادي!

هيـا إلى الثـأر الحبيس فقد غـدا ... في الصدر عاصفة من الأحقاد

لا.. لن تـدوم الفريـة الكبرى فقد ... عادت إلى الدنيا خطي الرواد

وصحت عيون الكبريـــاء تفاخـرا ما زال في الدنيا إباء الضاد
يـــا أمتـى عاد الفخـــار لـدارنـــا وابن الوليد وطارق بن زياد
الغافـقـــي علـى اللـــوار رأيتـــه فوق القناة يذود عن أولادي
ضمـي لعقـــــدك درة مكنـونـــة ما صادفت يومًا يد الصياد
هذا ريـــاض الشامخين إلى العـلا يفدي العرين عطية الأجواد
يـا دفقة الـروح العظيمـة كم روت ظمأ الراب إلى النجيع النادي
رويـت سينـــاء الأســـــرة بالفـــدا بدم الشهيد، بنوره الوقاد
بوركـت يـا مـوت الشهيد فقد أتت في هول وقعك ساعة الميلاد
مـا مـتَ.. قد وُلـدت بموتك أمـةٌ للثأر، للنصر العزيز البادي
ستظـــل ذكـــري بسالةٍ سطرتهـــا فوق القناة على مدى الآماد
أريـــــاض، قـد غسـلت عارنـــا ومحت ثلوج الجبن في الأكباد
لا.. لـــن تموت أنت فينـا ماثـــل متنقل منا إلى الأحفاد!

(٢٢٢)

هكذا هتف الشهيد المصري عبد المنعم رياض..
قصيدة الشاعر خالد الصمادي

أي عيــش يطيب لــي بقعــودي ... فلاقـم عند خندقـي وجنـودي
أي معنـــــي لبـزتــي ونجــوم ... غير معني الفـداء في كل بيـد
شــرف الواجــب الكبير دعانــي ... كـي أقـود الشجعان عبر الحـدود
هتفـت في السويس بي صرخـات ... قم إلى الثأر بين خفق القيود
مـا مقـــامـي إذًا وبئــس حيـــاة ... تتلهى رغـد عيـش جحــود
جبهـة النصـر اشعـلي الأفـق نـارا ... وصراخــا يبيد حشــد اليهـــود
جبهـــة النصـــر بالمـــدافــع دوي ... رتلــي للـطغـــاة أقســي الـردود
فـجريهـــا بركـــان قـــوف زؤام ... وفنـــاء للمعتديـــن وزيـــدي
واحيــلي ليــل الغـــزاة نهـــارا ... دمري بغـي طائـش وحقـــود
لغــة النـــــار كلمــا خبـــروه ... لم يبالـــوا بواعــد أو عهــود
لقنيهـم منها الـدروس ليصحـــوا ... بعد حلم ضغث وشوط زهيد
يـــا رفـاقـــي أسد الكنانـــة أنتـم ... أمن العرب والتراث المجيد
لا تهونـوا فالنصر آت مع الصبـر ... في الردع ولزحف أثر الصمود
لا تبالـــوا بالمـــوت فهو حيـــاة ... لسعيـد بالنصـر أو لشهيـد
مرحبـا بالجهـــاد عنـد جنـودي ... مطمحي عندهم وصديد جهودي
ورفاقي سمـــر الوجـــوه قيامـــا ... أبـــاة وأوفيـــاء العهـــود
لـــم تردعهم سهـــام الأعـــادي ... عزمهم قدر أشد من الحديد
وطنـوا النفس أن يعيشوا كرامـا ... فتعْـدي إنه خيـار الأســود

أو على ساحـــة الـــوغي قـد وقفوا للتـلال خير وعـــود
قسمـــا يـــا رفـاق لـن يخدعونـــا لن نعاني بكيدهم من جديد
قسما يا رفاق سوف نرجع للدروب ونحمي الحمي بيوم سعيد
مرحبـــا بالجهـاد طابـــت حيـاة تتجلي بها معاني الخلود
يـــا رفـــاق إذا قضيـت استمـــروا في خطي النصر واثبتوا للعبيد
إنكـم من أولئك الظفـــر الأبـــاة دار فجر العلا وخير الجدود
مرحبـــا بالمنـــون فـي ذمـــة الله فداءا لتراث يا نفسي جودي
يـــا ضفـــاف النيـــل الحبيب تغني بالالي من جحافل الضاد صيدي
اقسمـوا أن يحـــرروا كـــل شبـــر مـن سهول طهـــورة ونجـــود
إني قد شهـــــدت مـــا اقسمـــوا وهـم حينما حلفـت شـهـودي
هـذه ساعـة البطحـــاء فقـومـــوا رتلوا في البطاح أحلي نشيد
كبـــروا لله واستعـــدوا ليـــوم هـــو مجـــد ليومنـــا المنشـــود
أمـــة لا جهـــــاد عنـد بنيهـــا هـي لا ريب سنـة في الوجـود

(٢٢٣)

قصيدة الشاعر عبد الرحمن الأبنودي

(كما أوردتها «أخبار الأدب» في ٢٧ مارس ٢٠٠٦)

أخي العزيز(عبد المنعم رياض) شهيد معارك القنال..
تحية طيبة وسلام
سلام حقيقي
زي شمس العالم اللي..
بتيجي من قلب الضلام
عصرته لك...
من الدموع والابتسام
أرسلته لك
من خلف موكبك
من الزحام
من قلب صدق مصر
لما بتجتمع
ويبلع الصوت الكبير
في قلبه كل صوت
مصر الشريفة
بتندلع
وبتتسمع
من غير كلام!!

أكتب إليك واناع الرصيف
الصبح بدري..
طلعت م البيت
انتظر ركبّك يفوت
وقفت وسط الناس
وفي ضِل العمارات والبيوت
حزين.. كإني الحزن
مصلوب
كاني نخلة لما الريح تموت
غريب في وسط الناس
هنا.. علي الرصيف
بتعصف الدنيا
بأحلي ما في الضلوع.
لا قادرة عيني علي البجا
ولا قادرة
علي حبس الدموع.
مايهز أولادك
يا أرض الطيبين المخلصين
إلاّ اختفا إنسان شريف
خاصّة..
إذا مات في الدفاع
عن الوطن
وعن الفقاري والسنابل
والمباديء.. والرغيف.!!

كان الهوا بالامس بارد
في نواحي القاهرة
وانا ضعيف
لكن وقفْت في الميدان
ماكانش ممكن أنسحب من المكان
كإن حيفوت من هنا
جسدي أنا.
وقفت ادفي جسمي
في جسم الجموع.
وماكنتش اتخيل
بان اللي ف حشايا
في حشا و دموع
جميع الناس في مصر
إلاّ امًّا كسرني الزحام
وعصرني عصر
كأني قشّاية في بحر
يردّني يجيبني يمين
شمال يمين..
في الزحمة دي تنسي انت مين..
لكني حسيت إن زقّي حقهم
وإن ده المفروض يكون.
ما أحلا مصر
وهبه طالعة برجلها
بره السكون
علشان تكون!!

وانا كنت فاكر
إن اللي جمّعنا الأسي
علي فقْد قائد جيش عظيم
في ظروف شداد
تشبه لدي
لكني حسيت بالخجل
لما سمعت حوار مابين
اتنين مواطْنين طيبين
وأغلب الظن أنهم عمال
لأ.. نقاشين.
متطلطخة إيديهم بزيت البوية
والميتْ ألف لون
وأغلب الظن انهم
تركوا العمارة
ونزلوا يهدوك السلام.!!
قال القصير السمين:
(ده بدء خير)
بصّجوا اللفنديات عليه مستغربين
كمّل كلامه:
(ايوه.. واللي النهاردة اقدر أقول ان احنا بكرة منصورين)
بّصوا لفنديات
باستغراب شديد.
كمل كلامه:
(أيوه.. عب منعم رياض قائد عظيم

لانه بالموت إدّي معني للحياة
لقيمة العمل الكبير
اللي بناه وهوّه.. حيٌ
اتخيلوا قائد كبير
في أيام صعيبة زي دي
بيموت شهيد!!
وماتْها فين..؟
وسط العساكر والجنود
معناها إيه؟
معناها ان ٥ يونيه
بيختفي .. إلي الأبد.
وانّجه اتوجد معني
لتحرير الوطن
وعن الدفاع عن البلد
كل اللي مات
من قبل عب منعم رياض
ماتواع السرير وفي البيوت
ماتوا في سكوت
وكلهم قجتلّة المرض مش العدو.
لكن ده غير كل الرجال.
ده أول اللي ماتوا
علي شط القنال.
ودمه طرطشع الرمال
يرسم أمل وراء النضال

وبدمه..

بيقول : إشهدوا!!

انتو تقولوا مات شهيد

وأنا أقول:

ده مات مثل.

مات..

عارف ان الموت

جزء من العمل.

بيكمل الشغل اللي سبْته

فوق.. علي حيطان العمارة.

لولا إني شايفه عظيم عظيم

لولا انه خلانا نصدق

اللي بتقوله الخطب..

من ان سينا راح تعود

لولا انه كان واحد بسيط

من الجنود..

ازاي حاكون هنا في الميدان استقبله لجل الوداعْ..

ده لابن خال ولا ابن عم

لكنه شيِّل قلبي هم

مش أي هم ..

واللي اشتري غير اللي باع

✺

وعلي الرصيف

يا اخ (عب منعم رياض)

غلّي الزحام
وعلي الكلام.

✺

العامل التاني رفيع..شعره شايب
سنُّجه أكبر مننا.
اندار وبجصٌ علي اللفندي
اللي بيمزع الزحام
علشان يقف قدام
ووجهله الكلام.
وقالله:
(يا ابني..
لا أهمية لمطرح أو مكان
اختار ولو أبعد مكان
مافيش هنا فرجه
ولا متفرجين..
حتبجصٌ علي مين؟.. البطل..
جوه الخشب.
وإحنا هنا طالعين عشان
نعمل عمل.
طالعين
نوافق الأخ عبد منعم رياض
علي انه مات لاجل الوطن
ونطالبوا بمزيدن من الشهدا
جنود ومواطنين.

طالعين نشاركوا ف معركتنا
بالوقوف حول الجسد.
ونقول بإننا نقبل الموت الشريف
اللي بيرسم من دمانا عيد..
ونحط روحنا ع الرصيف
مع نفس جثمان الشهيد
والاّ احنا واقفين ليه يا ناس؟!)

✺

ميُّلنا روسنا في خشوع
جسدك يا 'عب منعم رياض'
نطق لسان إنسان فقير
بحقه في الحرية وبحقه
في تقرير المصير.
خلنا نتوحد جميعا في جسد
خُّلانا نتوحد جميعا
في هتاف واحد يهز سما البلد
بالروح
بالدم

نفديكي يا مصر

تم بحمد الله

يتميز كتاب الدكتور محمد الجوادي عن شهيد الأمة العربية «عبد المنعم رياض» بدقته في البحث والتحليل عن نشأته وتأهيله، مظهرا نبوغه المبكر وهوايته العسكرية، مما خلق منه القائد والمفكر العسكري الاستراتيجي للوطن العربي والشرق الأوسط عامة، وقد جمع رحمه الله الموهبة، والذكاء، والقدرة على الابتكار والتنظيم مع روح فداء وبذل وعطاء بغير حدود، مما أدى إلى استشهاده.

وأقولها وأنا أحد قادة أكتوبر المعاصرين إن استشهاد عبد المنعم رياض تسبب في وجود فراغ كبير في القيادة العامة للقوات المسلحة التي لم تتمكن من سد هذا الفراغ بسهولة، وإني لا أنسي قول اليهود في ذلك الوقت «إنها الطلقة الذهبية هي التي أودت بعبد المنعم رياض»، لأن اليهود كانوا يخشون عقلية عبد المنعم رياض لعلمهم التام بقدراته، وروح قيادته، وتأثيره في المعركة المقبلة.

ولا شك أن نصر عام ١٩٧٣ مدين لعبد المنعم رياض، فهو العقلية التنظيمية التي جادت بها العسكرية المصرية في جيله، والتنظيم هو أسمى مراحل الفكر العسكري، ورياض هو واضع أسس تنظيم قواتنا، وإنشاء قوة رابعة مستقلة للدفاع الجوي، وتنظيم المناطق العسكرية إلى جيوش ميدانية، مما ساعد على وضع خطط العمليات، هذا بالإضافة إلى تخطيطه لتسليح وتدريب القوات المسلحة.. باختصار: وضع الأساس لحرب أكتوبر.

من مقدمة الطبعة الأولى التي كتبها
اللواء المهندس جمال محمد علي
مدير سلاح المهندسين في حرب أكتوبر

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

9 786257 895804